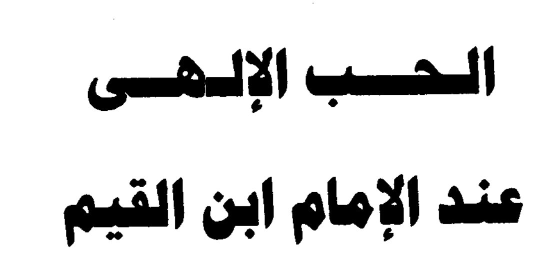
البحث السادس والعشرون



الحب الإلهى
عند الإمام ابن القيم

إعداد

د/ محمد عبد النبي سيد محمد

مدرس العقيدة والفلسفة

لجنة التحكيم

أ.د / محمد عبد الصبور هلال عضو اللجنة المحكمة

أ.د / على حسن محمد على عضو اللجنة المحكمة

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " .(١)

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " .(٢)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا " .(٣)

أما بعد فإن محبة قيوم الأرض والسماوات من أوجب الواجبات ، وأعظم القربات وأشرف الغايات ، وهي منتهى السعادات ، وبها تنال أعلى الدرجات ، ولأجل هذا قطع المحبون المفاوز والعقبات ، واجتازوا المحن والمشقات ، وتحملوا مفارقة المألوفات ، ومجانبة الشهوات ، رغبة في إرضاء المحبوب ، ورهبة من فوات المطلوب ، وشوقا إلى حضرة علام الغيوب ، لأنهم علموا أن هذه المترلة لا تدانى ، وأنه لا ينالها من فرط أو توانى ، بل من كد جهده وتفانى ، وتحلى بأزكى الخلائق ، وتخلى عن دنايا العلائق ، وتجاوز أصعب العوائق ، فليس الظفر لمن تمنى ، وإنما لمن كابد وتعنى .

ولما كان هناك في كل طائفة مخلصون وأدعياء ، وصادقون ودخلاء ، احتاج الأمر إلى تمييز الحق من الباطل ، حتى لا يختلط الحابل بالنابل ، فكم من قوم نسبوا أنفسهم إلى محبة الرحمن ، وهم ممن استحوذ عليهم الشيطان ، وإنما تظاهروا بذلك ليلبسوا على العامة وذوي السلطان ، فينالوا منهم التوقير ، وهم في الحقيقة أولى بالتثريب والتحقير .

وكان ممن جلّى الحق للعيان ، وأفصح عنه بأفصح بيان ، الإمام الموصوف بالألمعية والأحوذية ،

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء آية ١ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٧٠ ، ٧١ .

المعروف بابن قيم الجوزية ، فقد كان له في هذا الباب صولات وجولات ، لما له في هذا المضمار من تجارب ومشاهدات ، ولوامع وإشارات ، فألفينا له في هذا الأمر نظرات وعبرات ، وقد وشحها بوشاح الجمال الأبهى ، وتوجها بتاج الجلال الأزهى ، أنه قد استقى سلسلها من أصفى الينابيع وأنقاها ، واستورد زلالها من أزكى المصادر وأرقاها ، من كتاب رب العالمين ، وسنة سيد المرسلين ، فجاءت موافقة للشرع الحنيف ، وعلت بذلك ربى الفضل المنيف ، طارحة لما أدخله الكذبة المدعون ، ومفندة لما انتحله الزنادقة المبتدعون ، ومبينة في ذلك هدي الأنبياء والمرسلين ، ونهج الصادقين ، ومن تبعهم بإحسان من المخلصين .

وقد جاءت عباراته في هذا الموضوع في ثنايا كتبه منثورة ، وبين دفات ألواحها مقصورة فاحتاجت إلى من يجمع شتاتها ، ويجلي خفياتها ، لاسيما وقد اعتنى بها صاحبها فأفرد بها مصنفا سماه (روضة المحبين) لكنه جمع فيه أصناف المحبة جميعا ولم يقتصر على المحبة الإلهية ، وهو حقا روضة تأنس القلوب لقراءته ، وتهتز الأرواح لبيانه وبلاغته ، تأمل خطبة هذا الكتاب القيم التي قال فيها مؤلفها –رحمه الله– وقد أحسن قيلا :

" الحمد لله الذي جعل المحبة إلى الظفر بالمحبوب سبيلا ، ونصب طاعته والخضوع له على صدق المحبة دليلا ، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثارا لطلبها وتحصيلا ، وأودعها العالم العلوي والسفلي لإخراج كماله من القوة إلى الفعل إيجادا وإمدادا وقبولا ، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصا لها وتأهيلا ، فسبحان من صرف عليها القلوب كما يشاء ولما يشاء بقدرته ، واستخرج بها ما خلق له كل حي بحكمته ، وصرفها أنواعا وأقساما بين بريته وفصلها تفصيلا ، فجعل كل محبوب لمحبه نصيبا ، مخطئا كان في محبته أو مصيبا ، وجعله بحبه منعما أو قتيلا ، ... ".(٤)

وقد جمعت أشتات أقواله ، و قمت بترتيب مباحثها ، وشرح غامضها ، وربط أجزائها ، وآثرت قلة التصرف فيها لتتضح للقارئ كما ذكرها صاحبها ، متوخيا في ذلك الأمانة العلمية ، قاصدا أولا وجه الله عز وجل ، ثم خدمة تراث هذا الإمام بوجه عام ، وتجلية حقيقة رأيه في هذه القضية بوجه خاص ، عسى أن يجعل لي ربي من كريم محبته نصيبا ، سائلا مولاي العظيم التوفيق السداد ، و العون والرشاد ، ومؤملا من فضله النفع بها لكاتبها وقارئها في العاجل و الآجل ، إنه ولي ذلك

---

(١) انظر : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص ٣ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

وهو حسبي ونعم الوكيل ، وقد جاء البحث مكونا من عدة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : ترجمة الإمام ابن القيم .

المبحث الثاني : تعريف المحبة .

المبحث الثالث : أنواع المحبة .

المبحث الرابع : أنواع المحبوب .

المبحث الخامس : مراتب المحبة .

المبحث السادس : خصائص المحبة الإلهية .

المبحث السابع : علامات المحبة الإلهية.

المبحث الثامن : ثمرات المحبة الإلهية.

الخاتمة : وفيها نتائج البحث .

وصلى الله على سيدنا محمد و آله وصحبه أجمعين .

المبحث الأول

ترجمة الإمام ابن القيم

اسمه :

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، ثم الدمشقي الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية .(٥)

مولده :

ولد في سنة إحدى وتسعين وستمائة بدمشق .(٦)

نشأته العلمية :

نشأ الإمام ابن القيم رحمه الله نشأة علمية حيث كان والده رحمه الله قيما على المدرسة الجوزية ، وقد وجهه لطلب العلم ، وتلقى عن والده الفرائض (المواريث) حيث كان عالما بها ، ودرس بالمدرسة الصدرية سنة سبعمائة وثلاث وأربعين ، وسمع الحديث واشتغل بالعلم ، وبرع في العلوم المتعددة ، وتفقه في المذهب الحنبلي ، وبرع فيه ، وتفنن في علوم الإسلام ، فقد كان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيهما المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه ، لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطولى ، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك ، وكان عالماً بكلام أهل التصوف ، وإشاراتهم ، ودقائقهم له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى ، وأفتى ، ودرس وناظر ، وصنف ، وأفاد .(٧)

تعلقه بابن تيمية(٨):-

ولما عاد الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ ، فأخذ عنه علما جما ، مع ما سلف له من الاشتغال بالعلم قبل لقائه به ، فصار فريدا

---

(٥) ذيل طبقات الحنابلة ، ابن رجب الحنبلي ، ج٢ ص ٤٤٧ ، ط دار المعرفة للطباعة والنشر–بيروت.

(٦) البداية والنهاية – ج ١٤ ص ٢٧٠ وما بعدها ، ط مكتبة المعارف – بيروت .

(٧) انظر: المصدرين السابقين ، العبر في خبر من غبر ، ج١ ص ٣١١ ، ط دار الكتب العلمية– بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م .

(٨) هو الإمام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ، لقب بشيخ الإسلام ، ولد سنة ٦٦١ ، وتوفي سنة ٧٢٨ ، وكان عالما في التفسير والحديث والفقه والأصول ، واعتقل مرات بسبب بعض فتاواه ، ومات مسجونا بقلعة دمشق وله مصنفات عدة من أهمها منهاج السنة ، العقيدة الواسطية . انظر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، ج ١ ص ٤٦ ، ط دار الكتب الحديثة – القاهرة .

في بابه في فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلا ونهارا ، وتعلق به ولزمه قرابة ستة عشر عاما منذ لقائه به وحتى وفاته ، وقد حصل له في هذه المدة من بركة علمه الكثير ، وتأثر به في منهجه وعلمه ، وأخذ الفقه عنه ، وكان من عيون أصحابه ، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله ، بل ينتصر له في جميع ذلك ، وهو الذي هذب كتبه ، ونشر علمه ، وكان له حظ عند الأمراء المصريين ، واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة ، فلما مات أفرج عنه وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوي ابن تيمية ، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه .[٩]

أخلاقه واجتهاده في العبادة :

لقد عرف الإمام رحمه الله بأخلاقه العالية ، وفضائله السامية ، فقد كان من العلماء العاملين ، والأحبار الزاهدين ، وكان يمتاز بالرسوخ والثبات على الحق ، لذ فقد أثنى عليه معاصروه من أهل العلم ، ومن جاء بعدهم ممن ترجموا له .

فقد قال عنه الحافظ ابن كثير[١٠] – وكان معاصرا له – : " كان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد لا يؤذي أحدا ، ولا يستعيبه ، وكنت من أصحب الناس له وأحبهم إليه ، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله. وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير، وكتب بخطه الحسن شيئا كثيرا، واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عشره من كتب السلف والخلف، وبالجملة كان قليل النصير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة، سامحه الله ورحمه " .[١١]

---

(٩) انظر: البداية و النهاية ، ابن كثير ، ج ١٤ ص ٢٧٠ . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، ج ٤ ص ٢١ . العبر في خبر من غبر ، ج ١ ص ٣١١ .

(١٠) أبو عبد الله إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القيسي البصروي الشيخ عماد الدين ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير ، ونشأ بدمشق ، واشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله فجمع التفسير وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل وجمع التاريخ الذي سماه البداية والنهاية وعمل طبقات الشافعية وشرح أحاديث أدلة التنبيه وله تفسير القرآن العظيم ، ولازم المزي وقرأ عليه تهذيب الكمال وصاهره على ابنته وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتحن لسببه وكان كثير الاستحضار حسن المفاكهة سارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته سنة ٧٧٤هـ . انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، الحافظ ابن حجر ، ج ١ ص ١٢٥ .

(١١) البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٧٠ وما بعدها .

وقال ابن رجب الحنبلي(١٢) : " وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة ، والإنابة والاستغفار ، والافتقار إلى الله ، والإنكسار له ، والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك ، ولا رأيت أوسع منه علماً ، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ، ولكن لم أرَ في معناه مثله وقد امتحن وأوذي مرات ، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة ، منفرداً عنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ ، وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ، ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة ، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف ، والدخول في غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك ، وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه. " .(١٣)

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني(١٤) : " كان جرئ الجنان واسع العلم عارفا بالخلاف ومذهب السلف .. وكان يقول بالصبر والفقر تنال الإمامة في الدين ، وكان يقول لا بد للسالك من همة تسيره وترقيه وعلم يبصره ويهديه ، وكان مغرما بجمع الكتب ، فحصل منها ما لا يحصر حتى كان

(١٢) عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي الشيخ المحدث الحافظ زين الدين ، ولد ببغداد في ربيع الأول سنة ٧٠٦ وقدم دمشق مع والده ، وأكثر الاشتغال حتى مهر وصنف شرح الترمذي وقطعة من البخاري وذيل الطبقات للحنابلة واللطائف في وظائف الأيام بطريق الوعظ وفيه فوائد والقواعد الفقهية أجاد فيه وقرأ القرآن بالروايات وأكثر عن الشيوخ وخرج لنفسه مشيخة مفيدة ومات في شهر رجب سنة ٧٩٥ هـ . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج ١ ص ٢٩٦.

(١٣) ذيل طبقات الحنابلة ، ابن رجب الحنبلي ، ج٢ ٤٤٧ .

(١٤) قاضى القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن محمد بن أحمد الكناني العسقلاني ثم المصرى ، أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته بالقاهرة ، ولد سنة ٧٧٣ هـ ، ونشا يتيما ، وحفظ القرآن ، وأخذ من كثير من علماء عصره ولع بالادب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصده الناس للاخذ عنه وأصبح حافظ الاسلام في عصره . انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، الحافظ جمال الدين المزي ، ج١ ص ٦٦ ، تحقيق د. بشار عواد ، ط مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م . معرفة الثقات ، العجلوني ج ١ ص ١٥٦ ، ط مكتبة الدار – المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م ، الأعلام ، خير الدين الزركلي ، ج ١ ص ١٧٨ ، ط دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٠م .

أولاده يبيعون منها بعد موته دهرا طويلا سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم " . (١٥)

مؤلفاته :

وقد كان له تصانيف متعددة في السنة والأصول والرقائق والفقه والرد على أهل الملل والفرق الضالة ومن أهم مصنفاته :

١- زاد المعاد في هدي خير العباد . ٢- روضة المحبين .

٣- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي . ٤- بدائع الفوائد .

٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . ٦-الروح .

٧- إعلام الموقعين عن رب العالمين . ٨- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح .

٩- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى . ١٠- الفوائد .

وفاته :

أما عن وفاته فيقول ابن كثير رحمه الله :

" وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب – سنة إحدى وخمسين وسبعمائة- وقت أذان العشاء توفي صاحبنا الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ، إمام الجوزية ، وابن قيمها ، وصلي عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي ، ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله ... وقد كانت جنازته حافلة رحمه الله ، شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة ، وتزاحم الناس على حمل نعشه ، وكمل له من العمر ستون سنة رحمه الله " .(١٦)

---

(١٥) انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، الإمام ابن حجر العسقلاني ، ج٤ ص ٢١ .

(١٦) البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٧٠ (بتصرف) .

المبحث الثاني

تعريف المحبة

أولا : أصل اشتقاق لفظ المحبة :-

ذكر الإمام ابن القيم أقوالا متعددة في أصل اشتقاق كلمة المحبة ، مستشهدا على ذلك بأبيات من الشعر من أقوال العرب فقال :

" فأما المحبة فقيل : أصلها الصفاء ، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حَبَب الأسنان .

وقيل : مأخوذة من الحَبَاب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، فعلى هذا فالمحبة غليان القلب وثورانه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب .

وقيل : مشتقة من اللزوم والثبات ، ومنه أحب البعير إذا برك فلم يقم ، قال الشاعر :

حلت عليه بالفلاة ضربا ... ضرب بعير السوء إذ أحبا

فكأن المحب قد لزم قلبه محبوبه فلم يرم عنه انتقالا .

وقيل : بل هي مأخوذة من القلق والاضطراب ، ومنه سمي القرط حِبًّا لقلقه في الأذن واضطرابه.

وقيل : بل هي مأخوذة من الحَبِّ جمع حبة وهو لباب الشيء وخالصه وأصله ، فإن الحَبَّ أصل النبات والشجر .

وقيل : بل هي مأخوذة من الحب الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يسع غيره ، وكذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبة .

وقيل : مأخوذة من الحُب وهو الخشبات الأربع التي يستقر عليها ما يوضع عليها من جرة أو غيرها ، فسمى الحُبُّ بذلك لأن المحبَّ يتحمل لأجل محبوبه الأثقال كما تتحمل الخشبات ثقل ما يوضع عليها .

وقيل : بل هي مأخوذة من حبة القلب وهي سويداؤه ، ويقال ثمرته ، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب ، وذلك قريب من قولهم : ظَهَرَهُ إذا أصاب ظَهْرَه ، ورَأَسَه إذا أصاب رَأْسَه ، ورآه إذا أصاب رئته ، وبَطَنَه إذا أصاب بَطْنَه " .(١٧)

ولم يرجح الإمام رحمه الله واحدا من هذه الأقوال فالكل محتمل .

---

(١٧) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص ١٧ ، ١٨ .

وإذا تأملنا ما لهذه الألفاظ التي قيل إنها أصل لكلمة المحبة من معان وجدنا أن كلا منها يتناول جانبا من معنى المحبة ، فهذه الألفاظ لا تتفق فقط في حروفها مع لفظ المحبة ، وإنما يشكل كل لفظ منها جانبا من جوانب معنى المحبة كما ذكر الإمام من قبل ، ولهذا لم يرجح الإمام ابن القيم واحدا من هذه الألفاظ ليكون هو أصلا لكلمة أو الحب المحبة ، وكل هذه الألفاظ والمعاني ذكرها أصحاب المعاجم اللغوية .(١٨)

ولهذا يصعب الجزم بأن واحدا منها بعينه هو الأصل في اشتقاق كلمة المحبة .

بل على العكس من ذلك فقد ذهب الإمام ابن القيم إلى أن المحبة نفسها هي الأصل لسائر الألفاظ حيث قال : " والمحبة أم (أي أصل) باب هذه الأسماء " .(١٩)

ثانيا : ماهية المحبة

يقرر الإمام ابن القيم حقيقة مهمة وهي أن تحديد ماهية المحبة تحديدا واضحا ، وتعريفها تعريفا جامعا مانعا بالحد أو بالرسم كما تعرف المصطلحات أمر عسير بل مستحيل وغير مقدور ، لأن المحبة من الألفاظ ذات المعاني الدقيقة التي يختلف الناس في كيفية إدراكها والشعور بها ودرجتها ونوعها ، فهي ليست أمرا ماديا ملموسا أو شيئا معهودا معروفا ، ولكنها أمر وجداني ذوقي يختلف باختلاف الأشخاص وباختلاف درجاتهم في إدراكها وطبيعتها وآثارها ولوازمها وعلاماتها ، إذ يصعب على اللسان أن ينطلق ليعبر عما يجيش بالوجدان ، وإنما حاول كل من حاول تعريفها بحسب إدراكه وذوقه ودرجتها عنده ونوعها وآثارها وعلاماتها لديه دون أن يصل أي منهم بمفرده أو يصلوا بمجموع ما قالوه إلى كنهها وحقيقتها وتحديد ماهيتها ، فهي مما يستعصي على البيان ، ويعجز عنه تعبير اللسان ، بل إن التعريف اللغوي لها بالعودة إلى اشتقاقها ومبناها ليس مما يوفي معناها ، أويشفي غليل من طلب معرفة حقيقتها ، أو ينقع غلة من رام الوقوف على ماهيتها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من المعاني الوجدانية ، وقد رأينا كيف تشعبت الأقوال في اشتقاق مبناها

---

(١٨) انظر: لسان العرب ، جمال الدين ابن منظور ، ج ١ ص٢٨٩ ، ط دار صادر – بيروت ، الطبعة الأولى ، مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي ، تحقيق : محمود خاطر ، ج١ ص ١٦٧ ، ط مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م . كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي ، ط دار ومكتبة الهلال .

(١٩) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ج١ ص ١٩ .

، فما بالك بتحديد معناها ؟ وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله :

" الشيء إذا كان في الأمور الوجدانية الذوقية التي إنما تعلم بآثارها ، وعلاماتها ، وكان مما يقع في التفاوت بالشدة والضعف ، وكان له لوازم وآثار وعلامات متعددة اختلفت العبارات بحسب اختلاف هذه الأشياء ، وهذا شأن المحبة ، فإنها ليست بحقيقة معانيها ترى بالأبصار ، فيشترك الواصفون لها في الصفة ، وهي في نفسها متفاوتة أعظم تفاوت ، كما بين العلاقة التي هي تعلق القلب بالمحبوب ، والخلة التي هي أعلى مراتب الحب ، وبينهما درجات متفاوتة تفاوتا لا ينحصر ، ولها آثار توجبها وعلامات تدل عليها ، فكل أدرك بعض علاماتها ، فعبر بحسب ما أدركه ، وهي وراء ذلك كله ، ليس اسمها كمسماها ، ولا لفظها مبين لمعناها ، وكذلك اسم المصيبة ، والبلية ، والشدة ، والألم ، إنما تدل أسماؤها عليها نوع دلالة لا تكشف حقيقتها ، ولا تعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها ، وفرق بين الذوق والوجود ، وبين التصور والعلم ، فالحدود والرسوم التي قيلت في المحبة صحيحة غير وافية بحقيقتها بل هي إشارات وعلامات وتنبيهات".[٢٠]

وراح الإمام رحمه الله يذكر نماذج وأمثلة لهذه المحاولات التي قصد منها تعريف المحبة والإحاطة بمعناها ، والتي ذكرها العارف الزاهد أبو العباس بن العريف[٢١] في كتابه (المجالس) ويردف كلا منها بما يثبت قصورها عن الإلمام بمعنى المحبة من جميع جوانبها .

---

(٢٠) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٤٠ ، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر ، ط دار ابن القيم – الدمام (الثانية) ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ .

(٢١) أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي المرّي : من أهل المرية، يكنى: أبا العباس، ويعرف: بابن العريف كان متناهياً في الفضل والدين، منقطعاً إلى الخير، وكان العباد وأهل الزهد في الدنيا يقصدونه ويألفونه فيحمدون صحبته، وسعى به إلى السلطان فأمر ياشخاصه إلى حضرة مراكش فوصلها وتوفي بها سنة ٥٣٦هـ ، وله ثمان وسبعون سنة وندم السلطان على ما كان منه في جانبه وظهرت له كرامات ، كان من كبار العلماء الصالحين والأولياء المتورعين ، وله كتاب المجالس وغيره قيل عنه : ابن العريف ممن ضرب عليه الكمال رواق التعريف، فأشرقت بأضرابه البلاد، وشرقت به جماعة الحساد، حتى سعوا به إلى سلطان عصره، وخوفوه من عاقبة أمره، لاشتمال القلوب عليه، وانضواء الغرباء إليه.وقيل فيه : العارف المعروف . انظر: تبصير المنتبه وتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ج٣ ص ٩٤٤، ط المكتبة العلمية – بيروت ، سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ج ٢٠ ص ١١٣ ط مؤسسة الرسالة– بيروت ، الطبعة التاسعة ، ١٤١٣ هـ– ١٩٩٣ م ، العبر في خبر من غبر ، الحافظ الذهبي، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بسيوني ، ج٢ ص ٤٤٩، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، ج١ ص ١٦٨ ، ط دار صادر بيروت .

وأول هذه التعريفات قوله : " المحبة وجود تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه".[٢٢]

ويعلق على هذا التعريف بقوله : " فيقال هذا التعظيم المانع من الانقياد لغير المحبوب هو أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها لا أنه نفس المحبة فإن المحبة إذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيما لمحبوبه يمنعه من انقياده إلى غيره وليس مجرد التعظيم هو المانع له من الانقياد إلى غيره بل التعظيم المقارن للحب هو الذي يمنع من الانقياد إلى غير المحبوب فإن التعظيم إذا كان مجرداً عن الحب يمنع انقياد القلب إلى غير المعظم وكذلك إذا كان الحب خاليا من التعظيم لم يمنع المحب أن ينقاد إلى غير محبوبه فإذا اقترن الحب بالتعظيم وامتلأ القلب بهما امتنع انقياده إلى غير المحبوب".[٢٣]

وذكر الإمام تعريفا آخر بقوله : " وقيل المحبة إيثار المحبوب على غيره " .[٢٤]

وهو نظير قولهم : " من أحب الله لم يكن شيء عنده آثر من رضاه ومن أحب الدنيا لم يكن شيء عنده آثر من هوى نفسه " .[٢٥]

وقد علق عليه أيضا بقوله : " وهذا الحد أيضا من جنس ما قبله ، فإن إيثار المحبوب على غيره موجب المحبة ومقتضاها ، فإذا استقرت المحبة في القلب استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره".[٢٦]

وذكر تعريفا ثالثا فقال : " وقيل المحبة موافقة المحبوب فيما ساء وسر ونفع وضر ، كما قيل :

وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا		ما من يهون عليك ممن أكرم "[٢٧]

وقد قرر كذلك أن الموافقة وإن كانت دليلا على المحبة ولازما من لوازمها لكنها ليست عينها فقال :

" فيقال : وهذا الحد أيضا جنس ما قبله ، فإن موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها وليست

---

(٢٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٤٠ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٤٤٤ .

(٢٥) انظر: كلمة الإخلاص، ابن رجب الحنبلي ، ص ٣٥ ، تحقيق زهير الشاويش، ط المكتب الإسلامي- بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٧هـ .

(٢٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(٢٧) المصدر نفسه .

نفس المحبة ، بل المحبة تستدعي الموافقة ، وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم " .(٢٨)

ويشهد لهذا قول بعض الصوفية في تعريف المحبة فقد قال رويم : المحبة الموافقة في جميع الأحوال ، وأنشد :

ولو قلت لي مت قلت سمعا وطاعة وقلت لداعي الموت أهلا ومرحبا "(٢٩)

وذكر تعريفا رابعا فقال : " وقيل : المحبة القيام بين يديه وأنت قاعد ، ومفارقة المضجع وأنت راقد ، والسكون وأنت ناطق ، ومفارقة المألوف والوطن وأنت مستوطن " .(٣٠)

وتعقبه بقوله :

" فيقال وهذا أيضا أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها وحكم من أحكامها ، وهو صحيح فإن المحبة توجب سفر القلب نحو المحبوب دائما والمحبة وطنه ، وتوجب مثوله وقيامه بين يدي محبوبه وهو قاعد ، وتجافيه عن مضجعه ومفارقته إياه وهو فيه راقد وفراغه لمحبوبه كله وهو مشغول في الظاهر بغيره ، كما قال بعضهم

وأديم نحو محدثي ليرى أن قد عقلت وعندكم عقلي

وقال بعض المريدين لشيخه : أيسجد القلب بين يدي الله ؟ فقال : نعم سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة " .(٣١)

وقد ذكر الإمام ابن القيم نماذج أخرى لتعريف المحبة غير ما ذكره أبو العباس وعلق على بعضها بما يثبت أنها لم تحط بماهية المحبة وكنهها ، وقد ختم الحديث عن ذلك بما يشعر بأن ذلك من قبيل التكلف فقال :

" وقد قيل في المحبة حدود أكثر من هذا وكل هذا تعن " .(٣٢)

وهكذا أبت المحبة أن تشرحها ألفاظ ، أو تعرفها كلمات ، أو تحيط بحقيقتها عبارات ، فهي أعرف من أن تعرف ، فإذا أردت تعريفها فلن تجد ما هو أوضح منها لتعرفها به ، وفي هذا يقول الإمام رحمه الله :

---

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٢٩) انظر: كلمة الإخلاص لابن رجب الحنبلي ص ٣٢ .

(٣٠) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٥٥ .

(٣١) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٥٦ .

(٣٢) طريق الهجرتين ص ٤٦٠ . وانظر روضة المحبين ص ١٩ وما بعدها تجد مزيدا من التعريفات.

" ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أوضح من المحبة ولا أقرب إلى الفهم من لفظها ، وأما ذكر الحدود والتعريفات فإنما يكون عند حصول الإشكال والاستعجام على الفهم ، فإذا زال الإشكال وعدم الاستعجام فلا حاجة إلى ذكر الحدود والتعريفات ، كما قال بعض العارفين إن كل لفظ يعبر به عن الشيء فلا بد أن يكون ألطف وأرق منه ، والمحبة ألطف وأرق من كل ما يعبر به عنها".(٣٣)

وقد ذكر أبو العباس ابن العريف ما ذهب إليه قوم من أنه ليس هناك صيغة أو تعريف يوضع بإزاء المحبة فيعبر عنها ، ويعرب عن حقيقتها ، وأن من حاول ذلك فقد برهن على عدم وصوله إلى ذوقها ، وأنها ليس مما يعبر عنه الألفاظ والعبارات ، وإنما مما يعبر عنه الأحوال والسمات ، ذكر ذلك الإمام ابن القيم معبرا عنه بقوله :

" قال أبو العباس : وقال قوم : ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها ، فإن الغيرة من أوصاف المحبة ، والغيرة تأبى إلا التستر والاختفاء ، وكل من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها فليس له منها ذوق ، وإنما حركة وجدان الرائحة ، ولو ذاق منها شيئا لغاب عن الشرح والوصف فإن المحبة لا تظهر على المحب بلفظه ، وإنما تظهر عليه بشمائله ونحوله ، ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب لموضع اقتداح الأسرار من القلوب ، كما قيل :

تشير فأدري ما تقول بطرفها		وأطرق طرفي عند ذاك فتعلم
تكلم منا في الوجوه عيوننا		فنحن سكوت والهوى يتكلم" (٣٤)

وتعقب الإمام ذلك الرأي بأنه ليس هناك لفظ لا يمكن أن يعرف بصيغة من الصيغ غاية الأمر أن هناك من المعاني ما تقصر الألفاظ عن الإحاطة به والإخبار عن حقيقته كصفات الرحمن سبحانه وتعالى ، وكذلك كهذه الصفات الوجدانية من المحبة والعشق والشوق ونحوها ، وقد عبر عن ذلك فقال :

" قلت : كل معنى فله صيغة تعبر به عنه ، ولاسيما إذا كانت من المعاني المعروفة للخاص والعام ، ولكن العبارة قد تكون كاشفة للمعنى مطابقة له كلفظ الدراهم والخبز والماء واللبن ونحوها وهي أكبر الألفاظ ، وقد يكون المعنى فوق ما يشير إليه اللفظ ويعبر عنه وهو أجل من أن يدل لفظه على كمال ماهيته ، وهذا كأسماء الرب سبحانه وأسماء كتابه ، وكذلك اسم الحب فإنه لا يكشف

---

(٣٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٦٠ ، ٤٦١ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٤٦١ .

اسمه مسماه ، بل مسماه فوق لفظه ، وكذلك اسم الشوق والعشق والموت والبلاء ونحوها ، وقد يكون المعنى دون اللفظ بكثير ، واللفظ أجل منه وأعظم ، وهذا كلفظ الجوهر الفرد الذي هو عبارة عن أقل شيء وأصغره وأقله وأحقره ، فليس معناه على قدر لفظه ، وإذا عرف هذا فقولهم ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها المراد به أن لفظها لا يفهم حقيقة معناها ، ومعناها فوق ما يفهم من لفظها " .(٣٥)

فحاصل الأقوال أنها مما يعبر عنه بلسان الحال لا بلسان المقال ، وما أجمل ما قال الشيخ رحمه الله:

" فكم بين العلم بالشيء والاتصاف به ذوقا وحالا ، فعلم المحبة شيء ، ووجودها في القلب شيء ، وكثير من المحبين الذين امتلأت قلوبهم محبة لو سئل عن حدها وأحكامها وحقيقتها لم يطق أن يعبر عنها ، ولا يتهيأ له أن يصفها ويصف أحكامها ، وأكثر المتكلمين فيها إنما تكلموا فيها بلسان العلم لا بلسان الحال ، وهذا والله أعلم هو معنى قول بعض المشايخ : أعظم الناس حجابا عن الله أكثرهم إليه إشارة ، فإنه إنما حظه من الإشارة إليه لا علوق القلب عليه ، كالفقير الذي دأبه وصف الأغنياء وأموالهم ، ووصف الدنيا وممالكها ، وهو خلو من ذلك ، ولا ريب أن وجود الحب في القلب وترك الكلام علما ، خير من كثرة الكلام في هذه المسألة وخلو القلب منها وخير من الرجلين من امتلأ قلبه منها حالا وذوقا ، وفاضت على لسانه إرشادا وتعليما ونصيحة للأمة ، فهذا حال الكملة من الناس والله المسئول من فضله وكرمه".(٣٦)

وليس معنى ذلك أن التجربة تغني عن العلم ، كلا فكلاهما ضروري ، وبكل منهما يتكمل الآخر ، وقد رد الإمام على من قال : إنه لا يعلم حقيقة المحبة إلا من جربها حالا وذوقا ، ولا حاجة إلى العلم المجرد ، فقد رأى الإمام أن ذلك ربما فتح الطريق أمام تلبيسات الملبسين ، وتلفيقات المارقين ، بدعوى الأذواق والمواجيد ، فضلوا وأضلوا ، وقد أجاب عن ذلك بثلاثة أوجه :

أولها : أن الأحوال والأذواق والمواجيد التي تخالف العلم الصحيح لا يوثق بها ، ولا ينبغي أن يعتمد عليها ، لأن العلم هو والحق ، وهو أحق أن يتبع ، أما هذه الأحوال فقد تتخللها الأهواء وحظوظ النفس ، فتحمل صاحبها على مفارقة الحق ، ومقارفة الباطل ، فقال :

---

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٤٦٤ .

" اعلم أولا أن كل حال وذوق ووجد وشهود لا يشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل فهو من عبث النفس وحظوظها ، فلو قدر أن المتكلم إنما تكلم بلسان العلم المجرد فلا ريب أن ما كشفه العلم الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حال يخالف العلم والعلم يخالفه ، وليس من الإنصاف رد العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال ، وهذا أصل الضلالة ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم ، فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير . وكم قد ضل وأضل محكم الحال على العلم ، بل الواجب تحكيم العلم على الحال ورد الحال إليه ، فما زكاه شاهد العلم فهو المقبول ، وما جرحه شاهد العلم فهو المردود ، وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق ، يوصون بذلك ويخبرون أن كل ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل " .(٣٧)

والوجه الثاني الذي أجاب به هو أن العلم الصحيح قد يكفي وحده ، وإن كانت التجربة تصقله وتزيده ثباتا ، بخلاف الذوق فإنه لا يكفي وحده من دون العلم ، وفي ذلك يقول :

" ويقال ثانيا : ليس من شرط قبول العلم بالشيء من العالم به أن يكون ذائقا له ، أفتراك لا تقبل معرفة الآلام والأوجاع وأدويتها إلا ممن قد مرض بها وتداوى بها ؟ أفيقول هذا عاقل " ؟!(٣٨)

والوجه الثالث تساءل فيه الإمام عن الحد الذي ينبغي إليه صاحب الذوق من ذوقه ، فإن قيل لابد أن يبلغ الغاية القصوى أجيب بأنه ليس من مرتبة إلا ويتصور فوقها أخرى ، وإن قيل يكفي فيه حده الأدنى ، أجيب بأن هذا الحد قد يحصل لصاحب العلم أيضا ، ولذا قال :

" ويقال ثالثا : أتريد بالذوق أن يكون القائل قد بلغ الغاية القصوى في هذه المرتبة فلا يقبل إلا ممن هذا شأنه ؟ أو تريد أنه لا بد أن يكون له أذواق أهله من حيث يحمله ؟ فإن أردت الأول لزمك ألا يقبل أحد من أحد ، إذ ما من ذوق إلا وفوقه أكمل منه ، وإن أردت الثاني فمن أين لك نفيه عن صاحب العلم ؟ ولكن لإعراضك عن العلم وأهله صرت تظن أن أهل العلم لهم العلم والكلام والوصف ، وللمعرضين عنه الذوق والحال والاتصاف ، والظن يخطيء تارة ويصيب ، والله أعلم " .(٣٩)

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٤٨٠ .

(٣٩) المصدر نفسه ص ٤٨٠ .

فلا غنى للأحوال والأذواق عن الخضوع للعلم والمقصود به العلم الناشيء عن النظر الشرعي أي المستمد من الكتاب والسنة الصحيحة ، ولذا قال الإمام القشيري(٤٠) رحمه الله في رسالته : " سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي(٤١)، رحمه الله، يقول: سمعت جدّي أبا عمرو بن نجيد(٤٢) يقول: كل حال لا يكون عن نتيجة علم؛ فإن ضررَه على صاحبه أكثر من نفعه ".(٤٣)

وإننا لنجد هذا المعنى عند الإمام أبي حامد الغزالي(٤٤) –رحمه الله– الذي يقول : "فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد، بل هو من خاصية الحي المدرك".(٤٥)

إذن فهما متفقان على أنه لابد من الأمرين معا ؛ العلم النظري الذي ينتج عنه تصور وإدراك حقيقي بالموضوع ، الاتصاف بالحال والذوق الذي ينتج عنه تجربة تصقل العلم النظري وتثبته .

---

(٤٠) الإمام الزاهد، القدوة، الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيري الخراساني، النيسابوري الشافعي الصوفي المفسر، صاحب " الرسالة القشيرية ، ولد سنة ٣٧٥هـ ، وتعاني الفروسية والعمل بالسلاح حتى برع في ذلك ، ثم تعلم الكتابة والعربية ، وجود ، وسمع الحديث ، وتفقه ، وتقدم في الأصول والفروع ، وتوفي سنة ٤٦٥هـ . انظر: سير أعلام النبلاء ، الحافظ الذهبي ، ج ١٨ ص ٢٢٧.

(٤١) محمد بن الحسين بن موسى النيسابوري الصوفي الحافظ، شيخ الصوفية. صحب جدّه: أبا عمرو بن نجيد، وسمع الأصم وطبقته، وصنّف التفسير والتاريخ وغير ذلك، وبلغت تصانيفه مئة توفي في شعبان سنة ٤١٢هـ . انظر: العبر في خبر من غبر ، الحافظ الذهبي ، ج ١ ص ١٨٤ .

(٤٢) الشيخ الإمام القدوة المحدث الرباني، شيخ نيسابور، أبو عمرو، إسماعيل بن نجيد بن الحافظ أحمد بن يوسف بن خالد السلمي النيسابوري الصوفي كبير الطائفة، ومسند خراسان، مولده في سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٣٦٥ عن ثلاث وتسعين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ، الحافظ الذهبي ، ج ١٦ص ١٤٦ .

(٤٣) الرسالة القشيرية ، ص ٣٥ ، ط دار السلام – القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م.

(٤٤) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أبو حامد ، حجة الاسلام : فيلسوف متصوف له نحو مائتي مصنف ، ولد سنة ٤٥٠هـ ، ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته ، لمن قال بالتخفيف ، وتوفي سنة ٥٠٥هـ .

(٤٥) إحياء علوم الدين ، ج٤ ص ٤٢٨ ، تحقيق محمد عبد الملك الزغبي، ط مكتبة فياض – القاهرة.

المبحث الثالث

أنواع المحبة

المحبة أنواع كثيرة منها محبة الله ومنها محبة ما سواه لجماله أو لنواله ، وهي تتنوع أنواعا متعدد باعتبارات مختلفة ، من ذلك قول الإمام ابن القيم رحمه الله :

" والمحبة أنواع متعددة : فأفضلها وأجلها : المحبة في الله ولله ، وهي تستلزم محبة ما أحب الله وتستلزم محبة الله ورسوله ، ومنها محبة الاتفاق في طريقة أو دين أو مذهب أو نحلة أو قرابة أو صناعة أو مراد ما ، ومنها : محبة لنيل غرض من المحبوب إما من جاهه أو من ماله أو من تعليمه وإرشاده أو قضاء وطر منه وهذه هي المحبة العرضية التي تزول بزوال موجبها فإن من ودك لأمر ولى عنك عند انقضائه ، وأما محبة المشاكلة والمناسبة التي بين المحب والمحبوب فمحبة لازمة لا تزول إلا لعارض يزيلها ، ومحبة العشق من هذا النوع فإنها استحسان روحاني وامتزاج نفساني ولا يعرض في شيء من أنواع المحبة من الوسواس والنحول وشغل البال والتلف ما يعرض من العشق".(٤٦)

وقد ذكر أن المحبة في حد ذاتها جنس يقع تحته أنواع ، وأن محبة الله تعالى وإن اختلفت مع غيرها من أنواع المحبة بحيث تليق بذاته تعالى وتتره عما لا يليق به سبحانه إلا أنها يجمعها بغيرها من هذه الأنواع اسم المحبة باعتبارها جنسا عاما لجميعها، فقال:

" ولما كانت المحبة جنسا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف ، كان أغلب ما يذكر منها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ، ولا يصلح إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ونحوهما ، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وكذا الإنابة ، وقد ذكر المحبة باسمها المطلق ، كقوله تعالى : " فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه "(٤٧) ، وقوله تعالى : "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّه "(٤٨) ، وأعظم أنواع المحبة المذمومة المحبة مع الله التي سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبته للند الذي اتخذه من دون الله ، وأعظم أنواعها

---

(٤٦) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ٤ ص ٢٤٦ تحقيق : شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط ، ط مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية - بيروت ، الكويت ، الطبعة الرابعة عشر ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م . وانظر في ذلك أيضا روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، لابن القيم ، ص ٦٦ وما بعدها .

(٤٧) سورة المائدة آية ٥٦ .

(٤٨) سورة البقرة آية ١٦٥ .

المحمودة محبة الله وحده وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبقي في العذاب إلا أهلها ، فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد ، مدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهى عن المحبة الأخرى ولوازمها ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص النوعين ، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ، ومعبود كل منهما ، وإخباره عن فعله ، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة ؛ دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار " .(٤٩)

ويمكن رد هذه الأنواع جميعها إلى نوعين رئيسين :

النوع الأول : محبة مشتركة بين الخلق وبعضهم البعض ، وهي تختلف من حيث الباعث عليها إلى أنواع ثلاثة ، لأنها إما أن تكون ناشئة عن الطبيعة البشرية ، وإما أن يكون باعثها العاطفة ، وإما أن تكون ناتجة عن القرب والعشرة والمخالطة ، وحكمها أنها جائزة لأنها مما يشترك فيه الناس جميعا بحكم الطبع والجبلة التي خلقوا عليها ، ما لم تقترن هذه المحبة بتعظيم المحبوب ، وإليها أشار بقوله :

"والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع :

أحدها : محبة طبيعية مشتركة بين الناس جميعا : كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء وغير ذلك وهذه لا تستلزم التعظيم .

والنوع الثاني : محبة رحمة وإشفاق : كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها وهذه أيضا لا تستلزم التعظيم .

والنوع الثالث : محبة أنس وإلف : وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر بعضهم بعضا وكمحبة الإخوة بعضهم بعضا .

فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض ووجودها فيهم لا يكون شركا في محبة الله سبحانه ، ولهذا كان رسول الله يحب الحلواء والعسل ، وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد ، وكان أحب اللحم إليه الذراع ، وكان يحب نساءه وكانت عائشة رضي الله عنها

---

(٤٩) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٤١ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت.

أحبهن إليه ، وكان يحب أصحابه وأحبهم إليه الصديق " .(٥٠)

النوع الثاني : محبة خاصة بالحق سبحانه وتعالى لا تصلح إلا له وإلا وقع صاحبها في شَرَكِ الشِّرْكِ والعياذ بالله ، وهي محبة التعظيم والخضوع والعبودية والانقياد المطلق ، وإليها أشار بقوله :

" وأما المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده ومتى أحب العبد بها غيره كان شركا لا يغفره الله فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره . فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلا ، وهي التي سوى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها ، كما قال تعالى : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ " ، وأصح القولين أن المعنى يحبونهم كما يحبون الله وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب ، ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال : " وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ " فإن الذين آمنوا وأخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره ، وأما المشركون فلم يخلصوا لله".(٥١)

وهذا القول الذي ذكره الإمام ابن القيم في الآية ووصفه بالصحيح قد ذهب إليه المبرد والزجاج في أحد قوليه ، والقول الثاني في تفسير هذه الآية هو أن المشركين قد أحبوا الأنداد كالحب الذي لا يليق إلا بالله ، وهو الذي يحبه المؤمنون لله ، وهو ما ذهب إليه المبرد الزجاج في قول آخر له(٥٢) ، والسبب في ذلك أن قلوبهم خالية عن محبة الله تعالى فاستعظمت ما سواه ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

" فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره ، قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام : " كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ "(٥٣) ، فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج ويوسف عليه السلام لما كان مخلصا لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شابا عزبا غريبا مملوكا " .(٥٤)

---

(٥٠) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٥١) المصدر نفسه ، ص ٤٤٢ .

(٥٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبي ، ج٢ ص ١٩٩ ، ط دار احياء التراث العربي بيروت – لبنان ١٤٠٥ ه – ١٩٨٥ م

(٥٣) سورة يوسف : آية ٢٤ .

(٥٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ج١ ص ٤٧ تحقيق : محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م .

ونبه إلى أن إخلاص المحبة لله يكون وقاية من الوقوع في العشق والافتتان بجمال الصورة عن جمال المصور سبحانه وتعالى ، كما أن العشق والهوى والكلف كل ذلك راجع إلى الافتتان بالأغيار لفراغ القلب من محبة الواحد القهار ، فقال :

" وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى المعرضة عنه المتعوضة بغيره عنه فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه دفع ذلك عنه مرض عشق الصور ، ولهذا قال تعالى في حق يوسف : " كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ "(٥٥) فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته فصرف المسبب صرف لسببه ولهذا قال بعض السلف : العشق حركة قلب فارغ يعني فارغا مما سوى معشوقه قال تعالى : " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ "(٥٦) أي : فارغا من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له وتعلق قلبها به " (٥٧).

فإن قيل فهل يمكن أن يجتمع حب الله مع عشق الصور في قلب العبد ؟ أجاب الإمام ابن القيم – رحمه الله – بقوله :

" لا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدا ، بل هما ضدان لا يجتمعان ، بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه ، فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه ، وإن أحبه لن يحبه إلا لأجله أو لكونه وسيلة له إلى محبته أو قاطعا له عما يضاد محبته وينقصها ".(٥٨)

وبالجملة فإن محبة ما سوى الله تعالى تنقسم قسمين ، لأنها إما أن تكون حبا في الله وإما أن تكون حبا مع الله ، والأولى من أوجب الواجبات لأنها من لوازم محبة الله وبرهان كمال الإيمان ، ولا تتعارض مع محبة الله بل هي من جنسها ، بينما الثانية تقتضي محبة غير الله على سبيل المشاركة معه . ومن المهم التمييز بين النوعين ، وقد وضح ذلك بقوله :

---

(٥٥) سورة يوسف : آية ٢٤ .

(٥٦) سورة القصص آية: ١٠ .

(٥٧) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ٤ ص ٢٤٦.

(٥٨) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٢٨.

" والفرق بينهما أن الحب في الله تابع لمحبة الله فإذا تمكنت محبته من قلب العبد أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأوليائه لكونه تعالى يحبهم ويبغض من يبغضهم لكونه تعالى يبغضهم وعلامة هذا الحب والبغض في الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حبا لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضا إذا وصل إليه من جهته من يكرهه ويؤلمه إما خطأ وإما عمدا مطيعا لله فيه أو متأولا أو مجتهدا أو باغيا نازعا تائبا والدين كله يدور على أربع قواعد حب وبغض ويترتب عليهما فعل وترك فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله وإذا أبغض أبغض لله وإذا فعل فعل لله وإذا ترك ترك لله وما نقص من أصنافه هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه " .(٥٩)

ويصدق ذلك حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار " .(٦٠)

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان " .(٦١)

أما المحبة مع الله فإنها نوعان : لأنها إما أن تكون مقترنة بتعظيم وعبادة ما سوى الله ، فتكون شركا مخرجا عن الملة مستوجبا الخلود في النار واستحلال الدماء والأموال ، كمحبة المشركين لآلهتهم التي يعبدون من دون الله ويرجون منها النفع والضر ، وإما أن تكون المحبة مع الله مجرد ميل

---

(٥٩) الروح ، ص٢٥٣ . ط دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

(٦٠) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ج١ ص١٤ ، وباب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان ، ج١ ص ١٦ ، كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والهوان والقتل على الكفر ، ج٦ ص ٢٥٤٦ ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، ط دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ، وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ، ج١ ص ٦٦ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت ، من حديث أنس – رضي الله عنه – .

(٦١) أخرجه أبو داود في سننه ، حديث (٤٦٨١) من كتاب السنة ، باب في رد الإرجاء ، ج ٤ ص ٢٢٠ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط دار الفكر – بيروت ، من حديث أبي أمامة – رضي الله عنه– وصححه الألباني .

قلبي بحكم ما ركبه الله في الإنسان من محبة الشهوات وحينئذ لا تكون شركا مخرجا عن الملة ، وقد أشار إلى ذلك شارحا النوع الأول بقوله:

" وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان ؛ نوع يقدح في أصل التوحيد وهو شرك ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام ؛ فالأول كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم .. فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته فكل من عبد شيئا من لدن عرشه إلى قرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلها ووليا وأشرك به كائنا ذلك المعبود ما كان ولا بد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه " .(٦٢)

ثم شرح النوع الثاني ، وبين أنه لا يخلو من ثلاثة أمور ، لأنه إما أن يحب الإنسان الأشياء في الله ليصل بها إلى مرضاته ، وإما أن يكون حبه لها بحكم الطبيعة البشرية وأنه يلتذ بها ، وإما أن يحبها لذاتها بحيث تكون همه وديدنه ويؤثرها على محبة كل ما عداها حتى على محبة الله ، وإلى ذلك أشار بقوله :

" والنوع الثاني محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء ، فهذه المحبة ثلاثة أنواع :

- فإن أحبها لله توصلا بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته أثيب عليها وكانت من قسم الحب لله توصلا بها إليه ويلتذ بالتمتع بها ، وهذا حال أكمل الخلق -صلى الله عليه وسلم- الذي حبب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وكانت محبته لهما عونا له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره.
- وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته ، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه ، بل نالها بحكم الميل الطبيعي ، كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه .

(٦٢) الروح ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ (مختصرا) .

- وإن كانت هي مقصودة ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالما لنفسه متبعا لهواه .

فالأولى محبة السابقين ، والثانية محبة المقتصدين ، والثالثة محبة الظالمين " .(٦٣)

وقد جمع الإمام كل ما سبق من أنواع المحبة في موضع آخر فبين أنها أربعة أو خمسة أنواع على التفصيل وذلك حيث قال :

" وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها.

أحدها : محبة الله : ولا تكفي وحدها في النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه ، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله (بحسب زعمهم) .(٦٤)

الثاني : محبة ما يحب الله : وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه : وهي من لوازم محبة ما يحب الله ، ولا يستقيم محبة ما يحب الله إلا بالحب فيه وله .

الرابع المحبة مع الله : وهى المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئا مع الله لا لله ولا من أجله ولا فيه فقد اتخذه ندا من دون الله ، وهذه محبة المشركين .

وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه وهى المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم ، والزوجة ، والولد ، فتلك لا تذم إلا إن ألهت عن ذكر الله وشغلت عن محبته ، كما قال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ "(٦٥) ، وقال تعالى: " رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ "(٦٦) .(٦٧)

---

(٦٣) الروح ، ص ٢٥٤ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م ..

(٦٤) وقد حكى القرآن الكريم زعمهم هذا وأبطله وأقام الحجة عليهم ، حيث قال الله تعالى : " وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق " سورة المائدة آية ١٨ .

(٦٥) سورة المنافقون آية ٩ .

(٦٦) سورة النور آية ٣٧ .

(٦٧) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٤ .

المبحث الرابع

أنواع المحبوب

تكلمت سابقا عن أنواع المحبة عند الإمام ابن القيم رحمه الله ، والمحبة تقتضي محبوبا وهنا نتعرف على أنواع المحبوب عند ابن القيم أيضا :

وهو يرى أن المحبوب قسمان ، وهذا التقسيم يأتي من حيث وجود غاية من محبته يكون المحبوب وسيلة لها ، أو أن يكون هو ذاته غاية الحب ، فإن محبته إما أن تكون لذاته وإما أن تكون لغيره ، وفي ذلك يقول :

" والمحبوب قسمان : محبوب لنفسه ، ومحبوب لغيره ، ولا بد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه دفعا للتسلسل المحال ، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره ، وليس شيء يحب لنفسه إلا الله وحده ، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبته سبحانه ، وهي من لوازم محبته فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه ، وهذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة ، والتي لا تنفع بل قد تضر " .(٦٨)

وليس المقصود بالنفع والضر هنا في الدنيا ، فإن من يحب الله قد يجد العنت في سبيل ذلك من مخالفة نفسه وهواه ، وقد يجد من يحب شيئا من الدنيا سعادة زائفة في محبته ، ولكن النفع والضر هنا راجع إلى الآخرة .

" فالمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته ، وهذه المحبة هي عنوان السعادة ، وضدها هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته ، وهي عنوان الشقاوة ، ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه ، وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه ، فإن النفس قد تهوي ما يضرها ولا ينفعها ، وذلك ظلم من الإنسان لنفسه إما أن تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بأن تهوي الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما عالمة بما في محبته من الضرر ، لكن يؤثر هواها على علمها ، وقد تتركب محبتها من أمرين ؛ من اعتقاد فاسد ، وهوي مذموم ، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوي الأنفس ، فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل ، أو اعتقاد فاسد وهوى غالب ، أو ما تركب من ذلك فأعان بعضه بعضا ، فتتفق شبهة يشتبه بها الحق بالباطل يزين له أمر المحبوب ، وشهوة تدعوه إلى وصوله ،

---

(٦٨) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان ، والغلبة لإقواهما " .(٦٩)

أقسام محبة الله تعالى :-

تنقسم محبة الله تعالى قسمين :

١- محبة العوام : ويقول فيها الإمام حكاية عن الإمام أبي العباس بن العريف :

" قال وأما محبة العوام فهي محبة تنبت من مطالعة المنة وتثبت باتباع السنة وتنمو على الإجابة للغاية وهي محبة تقطع الوسواس وتلذذ الخدمة وتسلي عن المصائب وهي طريق العوام عمدة الإيمان" .(٧٠)

٢-محبة الخواص : وفيها يقول الإمام :

" وأما الخواص فعمدة إيمانهم محبة تنشأ من معرفة الكمال ومطالعة الأسماء والصفات والله أعلم ، قال أبو العباس : وأما محبة الخواص فهي محبة خاطفة تقطع العبارة وتدقق الإشارة ولا تنتهي بالنعوت ولا تعرف إلا بالحيرة والسكوت" .(٧١)

وإنما تنقسم المحبة إلى هذين القسمين من حيث سببها الباعث عليها ، وهذا الباعث نفسه قسمان : لأن المحبة إما ناشئة عن الإحسان ومطالعة النعم ، وعبر عن ذلك بقوله :

" وإنما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها ، وتنقسم بذلك إلى قسمين ؛ أحدهما : محبة تنشأ من الإحسان ومطالعة الآلاء والنعم فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ولا أحد أعظم إحسانا من الله سبحانه فإن إحسانه على عبده في كل نفس ولحظة وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلا عن أنواعه أو عن أفراده ... وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعا : " أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني بحب الله "(٧٢) ، فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن ورؤية النعم والآلاء وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت ولا نهاية لها " .(٧٣)

---

(٦٩) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص١٤٥ .

(٧٠) طريق الهجرتين ومفتاح السعادتين ، ص ٤٦٦ .

(٧١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٧٦ .

(٧٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ج٥ ص ٦٤٤ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت ، عن ابن عباس .

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٤٦٦ -٤٦٩ .

وهو مبعث محبة العوام ولذلك قال : " وإنما كانت هذه محبة العوام عنده لأن منشأها من الأفعال لا من الصفات والجمال ولو قطع الإحسان عن هذه القلوب لتغيرت وذهبت محبتها أو ضعفت فإن باعثها إنما هو الإحسان ومن ودك لأمر ولى عند انقضائه فهو برؤية الإحسان مشغول وبتوالي النعم عليه محمول " .(٧٤)

وإما أن يكون الباعث على المحبة هو الكمال الذاتي وتلك محبة الخواص ، وما أجمل أن يلاحـــظ العبد الأمرين ، ويتوفر لديه كل من الباعثين ، وفي ذا يقول :

" فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصا وأبعدها من كل خير فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانا منه سبحانه وتعالى ولا شيء أكمل منه ولا أجمل فكـــل كمـــال وجمـــال في المخلوق من آثار صنعه سبحانه وتعالى وهو الذي لا يحد كماله ولا يوصف جلاله وجماله ولا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله بل هو كما أثنى على نفسه وإذا كان الكمال محبوبا لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته إذ لا شيء أكمـــل منه وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته وأفعاله دالة عليها فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل وعلى كل ما أمر " .(٧٥)

ولذا كانت معرفة الله تعالى من أقوى الدواعي على محبته ، فمن عرف الله تعالى أحبه . وكلمـــا ازدادت معرفة العبد بربه زادت محبته له وإقباله عليه ، قال الإمام رحمه الله :

" وإنما تفاوتت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلـــم بـــه فأعرفهم بالله أشدهم حبا له ولهذا كانت رسله أعظم الناس حبا له والخليلان (إبـــراهيم ومحمـــد عليهما الصلاة والسلام) من بينهم أعظمهم حبا وأعرف الأمة أشدهم له حبا " .(٧٦)

ومحبة الخواص كما تختلف عن محبة العوام من حيث الباعث عليها ، فإنها كذلك تختلف عنها في ماهيتها وقوتها ، يقول ابن القيم رحمه الله :

---

(٧٤) المصدر نفسه . ص ٤٧٣ .

(٧٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٧٠ .

(٧٦) المصدر نفسه . ص ٤٧١ .

" إنما نعني بالمحبة الخاصة وهي التي تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبوبه ، وإلا فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله ، ولا يدخل الإسلام إلا بها ، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتا لا يحصيه إلا الله ، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما فهذه المحبة هي التي تلطف وتخفف أثقال التكاليف ، وتسخي البخيل ، وتشجع الجبان وتصفي الذهن ، وتروض النفس ، وتطيب الحياة على الحقيقة ، لا محبة الصور المحرمة وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد ، كما قيل :

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هي التي تنور الوجه وتشرح الصدر وتحيي القلب وكذلك محبة كلام الله فانه من علامة حب الله وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك سماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم فإنه من المعلوم أن من أحب حبيبا كان كلامه وحديثه أحب شيئا إليه " .(٧٧)

ومحبة الخواص الذين يحبون الله لملاحظة كماله ، ومعرفته سبحانه نوعان :

١- محبة أهل الفناء : وهي التي يفنى أصحابها في المحبوب بحيث لا يشعرون بشيء معه حتى بذواقم ، وحينئذ تفنى الإشارة ، وتعجز العبارة ، ولا يستطيعون نعت هذه الحال ، وقد حكى الإمام ذلك فقال :

" فهذه المحبة لما أفنت المحب واستغرقت روحه بحيث غيبته عن شهوده وفني فيها المحب وانمحت رسومه بالكلية ولم يبق هناك إلا محبوبه وحده فكأنه هو المحب لنفسه بنفسه إذ فني من لم يكن وبقي من لم يزل ولما ضاق نطاق النطق بهم عن التعبير عنها عدلوا إلى التعبير عنها بكونها قاطعة للعبارة مدققة للإشارة يعني تدق عنها الإشارة ولأن الإشارة تتناول محبا ومحبوبا وفي هذه المحبة قد فني المحب فانقطع تعلق الإشارة به إذ الإشارة لا تتعلق بمعدوم وسر هذا المقام عندهم هو الفناء في الحب بحيث لا يشاهد له رسما ولا محبة ولا سببا " .(٧٨)

٢- محبة أهل البقاء : وهي محبة تنشأ عن مطالعة كمال الله والتفكير في مخلوقاته وآثار قدرته وبدائع صنعه ، فأصحابها يحبون الله مع كمال البقاء مع الأغيار ، وعدم الذهول

(٧٧) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٧٨) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٧٧ .

أو الغياب عن الشعور .

وقد اختلف في أي المحبتين أكمل ، وأيتهما أفضل ، وحكى الإمام عن شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي[٧٩] في كتابه (منازل السائرين) أنه يفضل المحبة مع الفناء بناء على أصل أكثر الصوفية ، وهو أن الفناء هو غاية السالك التي لا غاية له وراءها ، ولكن الإمام رأى أن المحبة مع البقاء أفضل وأكمل ، واستدل على ذلك بأدلة عدة :

١- المقارنة بين محبة رسولنا -صلى الله عليه وسلم - وأنها أكمل من محبة موسى حيث إن رسولنا - صلى الله عليه وسلم - رأى ما رأى ليلة الإسراء لكن " مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى "[٨٠] لأن محبته محبة مع البقاء ، بينما خر موسى صعقا عندما تجلى ربه للجبل ، وقد أفاض في ذلك حيث قال :

" ولهذا كان إمامهم وسيدهم وأعظمهم حبا في الذروة العليا من المحبة وهو ، مراع لجريان الأمور ولجريان الأمة مثل سماعه بكاء الصبي في الصلاة فيخففها لأجله ، ومثل التفاته في صلاته إلى الشعب الذي بعث منه العين يتعرف له أمر العدو ، وهذا هو في أعلى درجة المحبة ، ولهذا رأى ما رأى في ليلة الإسراء وهو ثابت الجأش ، حاضر القلب ، لم يفن عن تلقي خطاب ربه وأوامره ومراجعته في أمر الصلاة مرارا ، ولا ريب أن هذا الحال أكمل من حال موسى الكليم ، فإن موسى خر صعقا وهو في مقامه في الأرض لما تجلى ربه للجبل ، والنبي قطع تلك المسافات وخرق تلك الحجب ورأى ما رأى وما زاغ بصره وما طغى ، ولا اضطراب فؤاده ولا صعق ، ولا ريب أن الوراثة المحمدية أكمل من الوراثة الموسوية " .[٨١]

٢- كذلك استدل على أن المحبة مع البقاء أقوى بأنها دليل على قوة نفس صاحبها وثباتها وتمكنها وقوة عزيمتها . وأنها أعون على طاعة أوامره واجتناب نواهيه ، وشهوده والظفر بمعيته ، بخلاف المحبة مع الفناء ، فقال :

---

(٧٩) عبد الله بن محمد بن علي الانصاري الهروي ، أبو إسماعيل: شيخ خراسان في عصره ، من كبار الحنابلة ، من ذرية أبي أيوب الانصاري ، كان بارعا في اللغة، حافظا للحديث، عارفا بالتاريخ والانساب ، مظهرا للسنة داعيا إليها ، امتحن وأوذي وسمع يقول: " عرضت على السيف خمس مرات ، لا يقال لي ارجع عن مذهبك ، لكن يقال لي اسكت عمن خالفك ، فأقول: لا أسكت ! " من كتبه " ذم الكلام وأهله الأعلام للزركلي ج ٤ ص ١٢٢ .

(٨٠) سورة النجم آية : ١٧ .

(٨١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٧٧ .

" ومما يدل على أن حال البقاء في الحب أكمل من حال الفناء أن الفناء إنما يعرض لضعف النفس عن وارد المحبة ، فتمتلئ به وتضعف عن حمله فيفنيها ويغيبها عن تمييزها وشهودها ، فيورثها الحيرة والسكوت ، وأما حال البقاء فيدل على ثبات النفس وتمكنها ، وأنها حملت من الحب ما لم يطق حمله صاحب الفناء ، فتصرفت في حبها ولم يتصرف فيها ، والكامل من إذا ورد عليه الحال تصرف هو فيه ولا يدع حاله يتصرف فيه ، وأيضا فإن البقاء متضمن لشهود كمال المحبوب ، ولشهود ذل عبوديته ومحبته ، ولشهود مراضيه وأوامره ، والتمييز بين ما يحبه ويكرهه ، والتمييز بين المحبوب إليه والأحب ، والعزم على إيثار الأحب إليه ، فكيف يكون الفاني عن شهود هذا التغييب الحب له أكمل وأقوى ؟! وأي عبودية للمحبوب في فناء المحب في محبته ؟! وهل العبودية كل العبودية إلا في البقاء والصحو وكمال التمييز وشهود عزة محبوبه وذله ؟! وهو في حبه واستكانته فيه اجتماع أرادته كلها في تنفيذ مراد محبوبه".(٨٢)

وبهذا أثبت الإمام ابن القيم رحمه الله أن المحبة مع البقاء أثبت وأكمل ، وأنها دليل على رسوخ القلب في المحبة وعلو المقام فيها ، وإن كان لم ينف المحبة مع الفناء ، ولم يذمها ، إلا أنها عنده مفضولة وليست فاضلة .

(٨٢) المصدر نفسه .

المبحث الرابع

مراتب المحبة

والناس في المحبة ليسوا سواء ، ومحبتهم ليست على درجة واحدة ، إنما تتفاوت شدة وضعفا ، وهذا التفاوت راجع إلى التفاوت في العلم بالمحبوب ، وإدراك كماله وعظيم نعمته ، وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله :

" وإنما تفاوتت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به ، فأعرفهم بالله أشدهم حبا له ، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حبا له ، والخليلان من بينهم أعظمهم حبا ، وأعرف الأمة أشدهم له حبا ، ولهذا كان المنكرون لحبه من أجهل الخلق به ، فإنهم منكرون لحقيقة إلهيته ، ولخلة الخليلين ، ولفطرة الله التي فطر الله عباده عليها ، ولو رجعوا إلى قلوبهم لوجدوا حبه فيها ، ووجدوا معتقدهم نفي محبتهم يكذب فطرهم " .(٨٣)

وقد بين الإمام ابن القيم أن للمحبة مراتب ودرجات متفاوتة ، واستشهد لكل منها بآيات وأحاديث ، وأبيات من الشعر وردت على لسان المحبين ، وبين أن منها ما يليق بمحبة الله تعالى ومنها ما لا يليق ، فقال رحمه الله :

" أول مراتب الحب العلاقة ، وسميت علاقة لتعلق الحب بالمحبوب ، قال الشاعر :

وعلقت ليلى وهي ذات تمائم   ولم يبد للاتراب من ثديها ضخم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعد ما   أفنان رأسك كالبغام الأبيض

ثم بعدها الصبابة ، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب ، قال الشاعر :

يشكي المحبون الصبابة ليتني   تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها   فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ثم الغرام : وهو لزوم الحب للقلب لزوما لا ينفك عنه ، ومنه سمي الغريم غريما لملازمته صاحبه ، ومنه قوله تعالى : " إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا "(٨٤) ، وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب وقل أن تجده في أشعار العرب .

---

(٨٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص٤٧١ .

(٨٤) سورة الفرقان آية ٦٥ . ومعنى غراما هنا أي: مُلحًا دائمًا، لازمًا غير مفارق من عذب به من الكفار، ومنه سمي الغريم لطلبه حقه وإلحاحه على صاحبه وملازمته إياه ، انظر: تفسير معالم التنزيل للإمام البغوي ، ج ٦ ص ٩٤ حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ، ط دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م ، ولهذا كان من مراتب المحبة الغرام لملازمة المحب لذكر محبوبه .

ثم العشق وهو إفراط المحبة ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه .

ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر ، وقد جاء إطلاقها في حق الرب تعالى ، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر أنه صلا صلاة فأوجز فيها ، فقيل له في ذلك ، فقال : أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي يدعو بهن (اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضاء والغضب ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفذ ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضاء بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين)[٨٥] .

وفي أثر آخر (طال شوق الأبرار إلى وجهك وأنا إلى لقائهم أشد شوقا)[٨٦] ، وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه)[٨٧] " [٨٨].

وليس كل الألفاظ السابقة يجوز إطلاقها على محبة الله فإن بعضها لا يليق أن يطلق على ما بين العبد وربه من المحبة وقد نبه إلى ذلك بقوله :

" ولما كانت المحبة جنسا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها في حق

---

(٨٥) أخرجه النسائي في سننه في كتاب الصلاة ، باب الدعاء بعد الذكر ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنـدري ، سيد كسروي حسن ، ج١ ص ٣٨٨ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، والحاكم في مستدركه ، حديث رقم (١٩٢٣) من كتاب الدعاء= =والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ج١ ص ٧٠٥ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م ، وابن حبان في صحيحه .حديث رقم (١٩٧١) ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب الله ج٥ ص ٣٠٥ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(٨٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ولم ينسبه إلى قائل ، بل ذكره بلفظ (كما قيل : طال شوق الأبرار إلى الله والله إلى لقائهم أشوق) ج١٠ ص ٩١ ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ .

(٨٧) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ج٥ ص ٢٣٨٦ ، من حديث عائشة وأبي موسى رضي الله عنهما ، وانظر كذلك في تعريف هذه المراتب واشتقاقها بإسهاب كتابه روضة المحبين ص ٢٢ وما بعدها .

(٨٨) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٢٩ .

الله تعالى : ما يختص به ويليق به كالعبادة والإنابة والإخبات ولهذا لا يذكر فيها لفظ العشق والغرام والصبابة والشغف والهوى وقد يذكر لفظ المحبة " .(٨٩)

ولكن هناك مرتبة في المحبة فوق كل هذه المراتب جميعها ، وهي أن يصير المحب عبدا خاضعا لمحبوبه متيما به ، وفي ذلك يقول الإمام :

" التعبد آخر مراتب الحب ويقال له التتيم أيضا " .(٩٠)

وقد عرفه بقوله : " وهو تعبد المحب لمحبوبه ، يقال تيمه الحب إذا عبده ، ومنه تيم الله أي عبد الله ، وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحبوب ، ومنه قولهم طريق معبد أي مذلل قد ذللته الاقدام ، فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته في العبودية ، فلا مترل له أشرف منها ، وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه وهو رسوله محمد –صلى الله عليه وسلم– بالعبودية في أشرف مقاماته وهو مقام الدعوة إليه ، ومقام التحدي بالنبوة ، ومقام الإسراء ، فقال سبحانه : " وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا "(٩١) ، وقال : " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ"(٩٢) ، وقال : " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى"(٩٣) ، وفي حديث الشفاعة " اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر "(٩٤) ، فقال مقام الشفاعة بكمال عبوديته ، وكمال مغفرة الله له ، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل ، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه ، قال تعالى: " وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ"(٩٥) .(٩٦)

---

(٨٩) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ج ٢ ص ١٣٣ .

(٩٠) المصدر السابق ، ج١ ص ١٣٢.

(٩١) سورة الجن آية ١٩ .

(٩٢) سورة البقرة آية ٢٣ .

(٩٣) سورة الإسراء آية ١ .

(٩٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه بلفظ " ولكن ائتوا محمدا –صلى الله عليه وسلم– عبد غفر الله له .. الحديث " حديث رقم (٦٤٦٤) ذكر الإخبار أنه صلى الله عليه وسلم إنما يشفع في القيامة ثم عجز الأنبياء عنها في ذلك اليوم ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٩٥) سورة البقرة آية ١٣٠ .

وهذه المراتب الستة السابقة وهي العلاقة ، والصبابة ، والغرام ، والعشق ، والشوق والتتيم قد تحصل لكل الناس ، وقد يصل إليها أي إنسان ، إلا أن وراء هذه المراتب جميعا مرتبة خاصة فريدة ومتميزة ، وهي لم تحصل إلا لاثنين فقط ولا ينبغي أن تكون إلا لهما ، وهي التي أشار إليها بقوله :

" ثم الخلة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها بحيث لا يبقى في القلب لمحبه سعة لغير محبوبه ، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ، وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما إبراهيم ومحمد ، كما قال : " إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا"[٩٧] وفي الصحيح عنه " لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله "[٩٨] ، وفي حديث آخر " إني أبرأ إلى كل خليل من خلته "[٩٩] ، ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه فتعلق حبه بقلبه فاخذ منه شعبة غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره ، فأمر بذبحه ، وكان الامر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانا ، ولم يكن المقصود ذبح الولد ،

(٩٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٩٧) أخرجه ابن ماجة في سننه ، باب فضائل أصحاب رسول الله (فضل العباس بن عبد المطلب) – رضي الله عنه – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج١ ص ٥٠ ، ط دار الفكر – بيروت ، من حديث –عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما – ، وأخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين ، ذكر إبراهيم النبي – صلى الله عليه وسلم – خليل الله عز وجل وبينه وبين نوح وهود وصالح صلوات الله عليهم ، حديث رقم (٤٠١٨) ج٢ ص ٥٩١ من حديث جندب رضي الله عنه ، وابن حبان في صحيحه ، ذكر اتخاذ الله –جل وعلا – محمدا – صلى الله عليه وسلم – خليلا كاتخاذه إبراهيم – صلوات الله عليه – خليلا ، حديث رقم (٦٤٢٥) ج١٤ ص٣٣٤ من حديث جندب أيضا .

(٩٨) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بلفظ " لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليل الله " في كتاب فضائل الصحابة – رضي الله عنهم – ، باب من فضائل أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ج٤ ص ١٨٥٥ من حديث الله بن مسعود – رضي الله عنه– .

(٩٩) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب المناقب عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باب مناقب أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ، ج٥ ص ٦٠٦ ، وأخرجه الإمام النسائي في سننه الكبرى= =في كتاب المناقب مناقب أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من المهاجرين والأنصار والرجال والنساء باب فضل أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ، ج٥ ص ٣٦ ، من حديث عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – ، وفي كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : " ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر ، ج٦ ص ٣٢٨ ، من حديث جندب – رضي الله عنه – .

ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب ، فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح ، وفدى بذبح عظيم ، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأسا ، بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله ، كما أبقى شريعة الفداء ، وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة ، وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها ، وقال : "لا يبدل القول لدى خمس في الفعل وخمسون في الأجر "(١٠٠) .(١٠١)

وقد رد الإمام رحمه الله على من توهم أن درجة المحبة وهي لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من مرتبة الخلة التي سيدنا لإبراهيم –صلى الله عليه وسلم– وعزا ذلك إلى قلة علمه ، فقال:

" وأما ما يظنه بعض الظانين أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد حبيب الله فمن جهله ، فإن المحبة عامة والخلة خاصة ، والخلة نهاية المحبة ، وقد أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن الله اتخذ إبراهيم خليلا ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة ، ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب وغيرهم ، وأيضا فإن الله سبحانه يحب التوابين ، ويحب الصابرين ، ويحب المحسنين ، ويحب المتقين ، ويحب المقسطين ، والشاب التائب حبيب الله ، وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام ، وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله " .(١٠٢)

ومن تأمل المعنى اللغوية لكلمة المحبة وأصل اشتقاقها علم أنها تدل على المحبة ، وعلى معنى زائد عليها ، بحيث إنها تتخلل نفس المحب وقلبه وتملك عليه كله وأبعاضه فلا يعود يملك من أمر نفسه شيئا في محبة محبوبه ، وبحيث لا تنازعها محبة أخرى معها وهذا شأن الخليلين صلى الله عليهما وسلم.

---

(١٠٠) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، ج١ ص ١٣٥ ، من حديث أبي ذر – رضي الله عنه – وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى السماوات وفرض الصلوات ، ج١ ص ١٤٨ ، من حديث أنس – رضي الله عنه–

(١٠١) الجواب الكافي ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ . وانظر : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج١ ص ٧٠.

(١٠٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٥ .

المبحث الخامس

خصائص المحبة الإلهية

إذا كانت محبة الله تعالى تندرج مع غيرها من الأنواع تحت عموم جنس المحبة لكونها تشارك هذه الأنواع في بعض ماهيتها ، فإن لمحبة الله خصائص تخصها ، وتخصصها أو تميزها عما سواها من هذه الأنواع ، وتلك الخصائص هي :

أولا : أنها أفضل أنواع المحبة ، فما دونها يكون تابعا لها :-

وإلى هذه الخصيصة أشار الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله :

" ومحبة الرب تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها ، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون إلى العبد أحب إليه من ولده ووالده ، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه ، فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله ، والشيء قد يحب من وجه دون وجه ، وقد يحب بغيره وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح الألوهية إلا له ، " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا "(١٠٣) ، والتأله : هو المحبة والطاعة والخضوع" .(١٠٤)

وقد تقدم أن من دواعي المحبة كمال المحبوب وجماله ونواله ، ولما كان الكمال والجمال المطلق لله سبحانه ، وأنه لا مناسبة بين كماله وبين ما لخلقه من بعض الكمال ، ولما كانت نعمه تعالى وأفضاله لا تعد ولا تحصى ، ولم يكن فضل ولا عطاء كفضله وعطائه سبحانه وجب أن يكون حب الله فوق كل محبة ، يقول الإمام رحمه الله :

" والمقصود أن العبد إذا اعتبر كل كمال في الوجود وجده من آثار كماله سبحانه فهو دال على كمال مبدعه ، كما أن كل علم في الوجود فمن آثار علمه ، وكل قدرة فمن آثار قدرته ، ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العلوي والسفلي إلى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم إلى علمه سبحانه وقدرته وقوته وحياته ، فإذا لا نسبة أصلا بين كمالات العالم وكمال الله سبحانه ، فيجب أن لا يكون بين محبته ومحبة غيره من الموجودات له ، بل يكون حب العبد له أعظم من حبه لكل شيء بما لا نسبة بينهما " .(١٠٥)

---

(١٠٣) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(١٠٤) الجواب الكافي وباب السعادتين،ص١٤٢، وانظر : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ج٢ص ١٢٥.

(١٠٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٧٢ .

ثانيا : أنها أصل الدين ، وأساس الإيمان ، وذروة سنام التوحيد :-

فالمحبة هي أصل الدين بمعنييه الأمري والجزائي كما قال الإمام رحمه الله :-

" والدين دينان ؛ دين شرعي أمري ، ودين حسابي جزائي ، وكلاهما لله وحده ، فالدين كله أمر أو جزاء ، والمحبة أصل كل واحد من الدينين ، فإن ما شرعه وأمر به يحبه وبرضاه ، وما نهى عنه فانه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه ، فهو يحب ضده ، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه ، ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضي ، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا "(١٠٦) ، وهذا الدين قائم بالمحبة ، وبسببها شرع ، ولأجلها شرع ، وعليها أسس ، وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، وكل من الأمرين محبوب للرب ، فإنهما عدله وفضله ، وكلاهما من صفات كماله ، وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه ويحب من يحبها " .(١٠٧)

فهي منتهى العبادة التي خلق الله الإنسان لأجلها ، كما قال جل شأنه : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ "(١٠٨) والعبادة لا تكون مقبولة إلا بالإخلاص ومحبة المعبود وصدق التوجه إليه ، لذا قال ابن القيم رحمه الله :

" حقيقة العبودية هي كمال المحبة " .(١٠٩)

وهي المقصد الأسمى من دعوة الرسل ، وهي السبب الموصل إلى دخول الجنة والنجاة من النار ، وهي الفارق بين الإيمان والكفر ، يقول الإمام رحمه الله :

" والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة ، وهي أول دعوة الرسل ، وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة ، باعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب بها ، فهي أول ما يدخل به في الإسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله ، وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها

---

(١٠٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر ، ج١ ص ٦٢ ، من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه .

(١٠٧) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٤٧ .

(١٠٨) سورة الذاريات آية ٥٦

(١٠٩) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ج ١ ص ٩٢ ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م .

، وجميع المقامات وسائل إليها وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل ، فهي قطب رحى طريق السعادة ، وروح الإيمان ، وساق شجرة الإسلام ، ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد ، فالكتاب هاد إليها ، ودال عليها ، ومفصل لها ، والحديد لمن خرج عنها ، وأشرك فيها مع الله غيره ، ولأجلها خلقت الجنة والنار " .(١١٠)

ومن ثم فلا تصح الأعمال بدونها ، ولا تكتمل سعادة المرء إلا بها ، " فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله".(١١١)

وكذلك " أصل العبادة محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه ، وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها ، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه ، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة " .(١١٢)

كذلك جعل الإمام رحمه الله مسألة المحبة أمرا مفروضا على العباد لا يسع أحدا منهم تركها أو الخيار فيها ، فهي من مقتضيات الإيمان ، ومن لوازم قول لا إله إلا الله حيث قال:

" وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنى أو منها بد كدقائق العلم والمسائل التي يختص بها بعض الناس دون بعض بل هذه مسألة تفرض على العبد وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها ومن لم يتحقق بها علما وحالا وعملا لم يتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله فإنها سرها وحقيقتها ومعناها " .(١١٣)

فعليها ينبني أصل الدين ، وأساس الإيمان ، وعليها تتوقف سعادة المرء في الدنيا والآخرة ، كما قال الإمام :

" فالمحبة أصل كل خير في الدنيا والآخرة كما قال بعض الزاهدين : ذهب المحبون لله بشرف

---

(١١٠) طريق الهجرتين ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(١١١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٧ .

(١١٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ج١ ص ٩٩ .

(١١٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٧٢ .

الدنيا والآخرة فإن النبي قال المرء مع من أحب فهم مع الله " .(١١٤)

وهي مع اليقين بالله الأصل الذي ينبني عليه أمر الدين كله ، كما قال :

" اليقين والمحبة هما ركنا الايمان وعليهما ينبني وبهما قوامه وهما يمدان سائر الاعمال القلبية والبدنية وعنهما تصدر وبضعفهما يكون ضعف الاعمال وبقوتهما قوتها وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تفتح بهما وهما يثمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم " .(١١٥)

بل إن لها تأثيرا في الأجر المترتب على العمل الصالح ، فكلما كان العمل مع المحبة أكمل كان الأجر أعظم وأفضل ، وإلى ذلك أشار الإمام بقوله :

" والأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والمحبة والتعظيم والإجلال وقصد وجه المعبود وحده دون شيء من الحظوظ سواه حتى لتكون صورة العملين واحدة وبينهما في الفضل ما لا يحصيه إلا الله تعالى " .(١١٦)

ثالثا : أنها أصل هذا العالم وسر وجوده وحركته واستقامة أمره :-

وفي هذا يقول الإمام رحمه الله :

" وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة ، فهي علتها الفاعلية والغائية وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع ؛ حركة اختيارية إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة قسرية .

فالحركة الطبيعية أصلها السكون ، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي ، فهو يتحرك للعود إليه وخروجه عن مركزه ومستقره ، وإنما يتحرك بتحرك القاسر المحرك له ، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره .

وحركة طبيعية بذاتها تطلب بها العود إلى مركزه ، وكلا حركتيه تابع للمحرك القاسر فهو أصل الحركتين .

والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الآخرتين ، وهي تابعة للإرادة والمحبة فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والإرادة .. إذا فهمت هذا فما في السماوات والأرض وما بينهما

---

(١١٤) المصدر نفسه ، ص ٤٧٦ (بتصرف) .

(١١٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، ج ١ ص١٥٤، ط دار الكتب العلمية – بيروت.

(١١٦) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، ص ٣٣ ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، ط مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها ، فإنما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمرا ، والمقسمات أمرا ، كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة في غير موضع ، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة .. إذا عرف ذلك فجميع تلك المحبات والحركات والإرادات والأفعال هي عباداتهم لرب الأرض والسماوات ، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها ، فلولا الحب ما دارت الأفلاك ، ولا تحركت الكواكب النيرات ، ولا هبت الرياح المسخرات ، ولا مرت السحاب الحاملات ، ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات ، ولا انصدع عن الحب أنواع النبات ، ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ، ولا تحركت المدبرات والمقسمات ، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرض والسماوات ، وما فيها من أنواع المخلوقات ، فسبحان من تسبحه السماوات والأرض ومن فيهن ، " وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ "(١١٧) (١١٨)

فبالمحبة خلق كل شيء ، وللمحبة خلق كل شيء ، فهي أصل تكوين الأكوان ، وهي حكمتها ومنتهاها ، وهي سرها المكنون .

رابعا : أنها فطرية :-

فكما أن الله عز وجل قد فطر الناس على إدراك وجوده ، فإن محبته كذلك فطرية في نفس كل من أدرك وجوده ، لظهور نعمه وكماله وذلك من دواعي محبته ، وهي فطرية كذلك حتى عند من أنكرها معاندا وجاحدا ، وقد أرسل الله الرسل ليعيدوا الناس إلى الفطرة بعد فسادها قال الإمام رحمه الله :

" ولهذا كان المنكرون لحبه من أجهل الخلق به فإنهم منكرون لحقيقة إلهيته ولخلة الخليلين ولفطرة الله التي فطر الله عباده عليها ، ولو رجعوا إلى قلوبهم لوجدوا حبه فيها ووجدوا معتقدهم نفي محبتهم يكذب فطرهم ، وإنما بعثت الرسل بتكميل هذه الفطرة وإعادة ما فسد منها إلى الحالة الأولى التي فطرت عليها ، وإنما دعوا إلى القيام بحقوقها ومراعاتها لئلا تفسد وتنتقل عما خلقت له ، وهل الأوامر والنواهي إلا خدم وتوابع ومكملات ومصلحات لهذه الفطرة ؟ وهل خلق الله سبحانه وتعالى خلقه إلا لعبادته التي هي غاية محبته والذل له ؟ وهل هيىء الإنسان إلا لها ؟ كما

(١١٧) سورة الإسراء آية ٤٤ .

(١١٨) إغاثة اللهفان ج٢ ص ١٢٥ مختصرا ، وانظر : روضة المحبين ص ٥٥ .

قيل :

قد هيئوك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وهل في الوجود محبة حق غير باطلة إلا محبته سبحانه ؟ فإن كل محبة متعلقة بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلقها ، وأما محبته سبحانه فهو الحق الذي لا يزول ولا يبطل ، كما لا يزول متعلقها ولا يفنى " .[119]

إذن فمحبة الله أمر فطري أو وهبي وليست مما ينال بالكسب والتعليم النظري ولذا حكى الإمام قول بعض كبار الصوفية في ذلك وهو معروف الكرخي[120] فقال :

" قال رجل لمعروف علمنى المحبة فقال المحبه لا تجيء بالتعليم

هو الشوق مدلولا على مقتل الفنا   إذا لم يعد صبا بلقيا حبيبه "[121]

---

(119) طريق الهجرتين ، وباب السعادتين ، ص ٤٧١ .

(120) أبو محفوظ معروف بن فيروز، وقيل الفيروزان، وقيل علي، الكرخي الصالح المشهور، وكان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي، فكان المؤدب يقول له: قل ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فضربه المعلم على ذلك ضرباً مبرحاً فهرب منه ، وأخبار معروف ومحاسنه أكثر من أن تعد؛ وتوفي سنة مائتين، وقيل إحدى ومائتين، وقيل أربع ومائتين ببغداد، وقبره مشهور بها يزار، رحمه الله تعالى وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٥ ص ٢٣١ وما بعدها .

(121) الفوائد ، ص ٦٩ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

المبحث السادس

علامات المحبة

وللمحبة دلائل وعلامات تحصل لصاحبها وتظهر عليه ، وهي تجتمع فيه وتفترق ، وتزيد درجتها وتنقص بمقدار مرتبته في المحبة ، وبحسب صدقه وإخلاصه ، وهي كذلك تفرق بين المحب الصادق والمدعي الكاذب ، فإن ألسنة الأحوال أنطق شاهدا وأقوى دليلا ، ولذا قال الإمام رحمه الله حاكيا قول ابن العريف :

" المحبة لا تظهر على المحب بلفظه وإنما تظهر عليه بشمائله ونحوله " .[١٢٢]

وعلق عليه بقوله : " هذا حق ؛ فإن دلالة الحال على المحبة أعظم من دلالة المقال عليها ، بل الدلالة عليها في الحقيقة هو شاهد الحال لا صريح المقال ، ففرق بين من يقول لك بلسانه إني أحبك ولا شاهد عليه من حاله ، وبين من هو ساكت لا يتكلم وأنت ترى شواهد أحواله كلها ناطقة بحبه لك ، قال الجنيد[١٢٣] : دفع السري إليّ رقعة وقال : هذه خير لي من سبعمائة قصة وكذا ، فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني   فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا   وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتبخل حتى ليس يبقي لك الهوى   سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

وبالجملة فشاهد الحب الذي لا يكذب هو شاهد الحال ، وأما شاهد المقال فصادق وكاذب".[١٢٤]

وهذه العلامات والآثار التي تظهر على من أحب الله تعالى حبا خالصا مخلصا من قلبه كثيرة نذكر منها :

---

(١٢٢) طريق الهجرتين ، وباب السعادتين ، ص ٤٦٥ .

(١٢٣) الجنيد بن محمد الامام القدوة المحدث، أبو القاسم القايني نزيل هراة ، وشيخ الصوفية ، من العلماء بالدين ، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد ، أصل أبيه من نهاوند ، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير ، وعرف الجنيد بالخزاز لانه كان يعمل الخز ، قال أبو سعد السمعاني: سمعت جماعة كتب منه، مولده سنة ٤٦٦ ، ومات في رابع عشر شوال سنة ٥٤٧هـ . انظر: سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ص ٢٧٢ ، الأعلام للزركلي ج٢ ص١٤١.

(١٢٤) المصدر نفسه ، ص ٤٦٥ .

أولا : توحيد المحبوب :-

أي إفراده بالمحبة فلا يكون له شريك فيها ، فلا يقاسم قلب المحب مع محبوبه أحد ، بل يجود له بكليته ، ويأبى أن يجعل فيه مكانا لغيره ، وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله :

" والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب ، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته ، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك في محبته غيره ويمقته لذلك ويبعده ولا يحظيه بقربه ويعده كاذبا في دعوى محبته ، مع أنه ليس أهلا لصرف قوة المحبة إليه ، فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده ، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال ، ولهذا لا يغفر سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. فمن لم يكن إله مالكه ومولاه كان إله هواه ، قال تعالى : " أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ "(١٢٥) (١٢٦).

فتوحيد محبته من لوازم توحيد عبادته ، وتوحيد عبادته أوجب الواجبات فالعبادة هي الغاية التي لأجلها خلق ابن آدم ، ومن لوازم العبادة المحبة فلا تتم العبادة الصادقة إلا بها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، كما قال ابن القيم رحمه الله :

" والمقصود أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الإشراك بالله في المحبة ، بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية ، وموجباتها فإن محبة رسول الله بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء لا يتم الإيمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله ، وكذلك كل حب في الله ولله ، كما في الصحيحين عنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال : " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان "(١٢٧) ، وفي لفظ في الصحيح " لا يجد عبد طعم الإيمان إلا من كان في قلبه ثلاث خصال ؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار "(١٢٨) ، وفي الحديث الذي في السنن " من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان "(١٢٩) ، وفي حديث آخر " ما تحاب رجلان

---

(١٢٥) سورة الجاثية آية ٢٣ .

(١٢٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(١٢٧) سبق تخريجه انظر: ص ٢١.

(١٢٨) لم أقف على الحديث بهذا اللفظ لا في الصحيح ولا في غيره .

(١٢٩) سبق تخريجه . انظر : ص .

في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه "(١٣٠) ، فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها ، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك " .(١٣١)

وهذا الإخلاص في توحيد المحبة هو الذي يفرق بين المؤمنين والكافرين ، وبه بعث جميع الأنبياء والمرسلين ، فإنهم ما بعثوا إلا بكلمة التوحيد وهي قول لا إله إلا الله .

" وروح هذه الكلمة وسرها إفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وتبارك اسمه وتعالى جده ، ولا إله غيره بالمحبة ، والإجلال ، والتعظيم ، والخوف ، والرجاء ، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، بل كان ما كان يحب غيره ، فإنما هو تبعا لمحبته وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يحتسب إلا به ، ولا يستعان في الشدائد إلا به ، ولا يلتجي إلا اليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له ، وباسمه يجتمع ذلك في حرف واحد ، وهو أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو ، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها ، كما قال تعالى : " وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ"(١٣٢) ، فيكون قائما بشهادته في باطنه وظاهره ، وفي قلبه وقالبه " (١٣٣).

فالله تعالى يغار على عبده أن ينظر في قلبه فيجد فيه رغبة لسواه ، أو رهبة مما عداه أو طلبا لمن دونه ، وهو سبحانه أولى بذلك من العبد ، بل هو أولى به من كل شيء حتى من نفسه .

" ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك ، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وأصل الشرك بالله الإشراك مع الله في المحبة ، كما قال تعالى : "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ "(١٣٤) ، وأخبر سبحانه أن من الناس

---

(١٣٠) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب البر والصلة ، حديث رقم (٧٣٢٣) ، ج٤ ص ١٨٩ ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(١٣١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٤ .

(١٣٢) سورة المعارج آية ٣٣ .

(١٣٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٩.

(١٣٤) سورة البقرة آية ١٦٥ .

من يشرك به من دونه فيتخذ الأنداد من دونه يحبهم كحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم ، وقيل بل المعنى أنهم أشد حبا لله من أصحاب الأنداد ، فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك ، والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة " .(١٣٥)

وذلك إشارة إلى قوله تعالى : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ " .(١٣٦)

فالله تعالى هو المعبود بحق ، وهو المحبوب استحقاقا ، وهو الملجأ وحده والملاذ ، "فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تأله القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل عليه في مصالحها وتلجأ إليه وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه وليس ذلك إلا الله وحده ولهذا كانت لا إله إلا الله أصدق الكلام وكان أهلها أهل الله وحزبه والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته فهذه المسألة قطب رحى الدين الذي عليه مداره وإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله ولا حول ولا قوة إلا بالله " .(١٣٧)

ثانيا : إجلال المحبوب وتعظيمه :-

إذ لابد أن تقترن محبة الله بتعظيمه وإجلاله وتقديسه فيلزم العبد من ربه مقام العبودية لا يعدوه ، ولا يسيء الأدب بدعوى الحب ، ولا ينبسط مع انبساط القرين إلى قرينه والإلف إلى إلفه ، وإنما يكون يزداد إذعانا لربه بالألوهية ولنفسه بالذلة والألوهية ، وكلما ازداد لباريه تذللا ، زاده الله عزا وقربا " فلا ريب أن الحب والأنس المجرد عن التعظيم والإجلال يبسط النفس ، ويحملها على بعض الدعاوي ، والرعونات ، والأماني الباطلة ، وإساءة الأدب ، والجناية على حق المحبة . فإذا قارن المحبة مهابة المحبوب ، وإجلاله ، وتعظيمه ، وشهود عز جلاله ، وعظيم سلطانه انكسرت نفسه له ، وذلت لعظمته ، واستكانت لعزته ، وتصاغرت لجلاله ، وصفت من رعونات النفس

---

(١٣٥) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٢

(١٣٦) سورة الأنعام آية ١ .

(١٣٧) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٧٣ .

وحماقاتها ، ودعاويها الباطلة ، وأمانيها الكاذبة ، ولهذا في الحديث يقول الله عز وجل : " أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي "(١٣٨) ، فقال أين المتحابون بجلالي ، فهو حب بجلاله ، وتعظيمه ، ومهابته ، ليس حبا لمجرد جماله ، فإنه سبحانه الجليل الجميل ، والحب الناشيء عن شهود هذين الوصفين هو الحب النافع الموجب لكونهم في ظل عرشه يوم القيامة ، فشهود الجلال وحده يوجب خوفا وخشية وانكسارا ، وشهود الجمال وحده يوجب حبا بانبساط وإذلال ورعونة ، وشهود الوصفين معا يوجب حبا مقرونا بتعظيم وإجلال ومهابة ، وهذا هو غاية كمال العبد والله أعلم " .(١٣٩)

نعم فإن من كمال المحبة اقترانه بتعظيم المحبوب واستشعار المحب تلك العظمة في نفسه فلو أنه أحب محبوبه بلا تعظيم كان ذلك نقصا كما لو عظم أحدا بلا محبة ، وإنما الكمال في الجمع بين الأمرين ، كما قال الإمام :

" كمال المحبة أن تقرن بالتعظيم والهيبة ، فالمحبة بلا هيبة ولا تعظيم ناقصة ، والهيبة والتعظيم من غير محبة كما تكون للغادر الظالم نقص أيضا ، والكمال أن تجتمع المحبة والود والتعظيم والإجلال ، وهذا لا يوجد إلا إذا كان في المحبوب صفات الكمال التي يستحق أن يعظم لأجلها ويحب لأجلها".(١٤٠)

ومن هنا فإن التذلل للمحبوب والخضوع له ليس فقط علامة من علامات المحبة ، بل من أهم الأسباب التي تستجلب محبة المحبوب له وهو أقصى ما يرجوه المحب ، لذا قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – :

" لا ينال رضا المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدنو منه الزلفى لديه إلا على جسر من الذلة والمسكنة وعلى هذا قام أمر المحبة فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك كما قيل :

تذلل لمن تهوى لتحظى بقربه   فكم عزة قد نالها العبد بالذل " (١٤١)

---

(١٣٨) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الحب في الله ، ج٤ ص١٩٨٨ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(١٣٩) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(١٤٠) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ، ص ١٨٦ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط ، ط دار العروبة – الكويت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

(١٤١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، ج ١ ص ٢٤ .

والعبادة الناشئة عن المحبة والإجلال أفضل من العبادة الناشئة عن خوف المعبود مجردا عن محبته وإجلاله ، لذا قال الإمام :

" إن الله يعصم عبده بالخوف تارة والمحبة والإجلال تارة ، وعصمة الإجلال والمحبة أعظم من عصمة الخوف ، لأن الخوف يتعلق بعقابه ، والمحبة والإجلال يتعلقان بذاته وما يستحقه تبارك وتعالى ، فأين أحدهما من الآخر ؟! ولهذا كان دين الحب أثبت وأرسخ من دين الخوف ، وأمكن ، وأعظم تأثيرا ، وشاهد ما نراه من طاعة المحب لمحبوبه وطاعة الخائف لمن يخافه ، كما قال بعض الصحابة : إنه ليستخرج حبه مني من الطاعة ما لا يستخرجه الخوف " .(١٤٢)

ثالثا : اقتران المحبة بالخوف والرجاء :-

وهذا واضح مما سبق ، فإن العبد إذا استشعر عظمة ربه وصدق له في محبته جمع إلى هذه المحبة خوفا من غضب محبوبه عليه ، ورجاء لرضاه عنه " والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها ، بل قد تضره لأنها توجب الإدلال والانبساط ، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات ، وقالوا المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب ، وإقباله على الله ، ومحبته له ، وتألهه له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل " .(١٤٣)

والمحبة المقترنة بالخوف من الله وخشيته تدفع صاحبها إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، قال الإمام :

" الخشية لقاح المحبة فإذا اجتمعا أثمر امتثال الأوامر واجتناب والنواهي " .(١٤٤)

ولتعلم أن هذه من أخص العلامات التي تميز الصادق من المدعي ، فإذا رأيت من يدعي الحب لم يصحب معه خوفا يحجزه عن عصيان محبوبه ، ورجاءا يؤمله بلوغ مطلوبه فاعلم أنه مدع مزور كذاب ، وما أجمل ما قال الإمام رحمه الله في ذلك :

" إذا سافر المحب للقاء محبوبه ركبت جنوده معه فكان الحب في مقدمة العسكر والرجاء يحدو بالمطى والشوق يسوقها والخوف يجمعها علي الطريق فاذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم

---

(١٤٢) بدائع الفوائد ، ج ١ ص ٥٨ تحقيق : هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد الج ، ط مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

(١٤٣) بدائع الفوائد ، ج٣ ص ٥٢٢ .

(١٤٤) الفوائد ، ص ١٩٩ .

الحبيب باللقاء .

فداو سقما بجسم أنت متلفه ... وابرد غراما بقلب أنت مضرمه

ولا تكلني على بعد الديار إلي ... صبري الضعيف فصبري أنت تعلمه

تلق قلبي فقد أرسلته عجلا ... إلى لقائك والأشواق تقدمه " (١٤٥)

وقد حذر الإمام رحمه الله من بدع المبتدعين في هذا الباب ، وأبطل جهالاتهم الفاسدة ، وضلالاتهم الكاسدة ، وألبسوا الباطل ثوب الحق ليلبسوا على الناس دينهم فذكر ما حدث من بعض جهالهم قائلا :

" ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء – يعني جهلة الصوفية ومبتدعتها– خلوة له ترك فيها حضور الجمعة ، فقال له الشيخ أليس الفقهاء يقولون إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه ؟ فقال له : بلى ، فقال له : فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم ، أو كما قال ، وهو إذا خرج ضاع قلبه ، فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه ، فقال له : هذا غرور ، بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله ، وحفظ قلبه مع الله ، فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ، ويراعى حفظ قلبه أو كما قال". (١٤٦)

وبعد أن ساق هذا الموقف الذي لا يدل إلا على بلادة صاحبه ، وقلة فقهه ، واحتقاره لدين الله بدعوى المحبة ، علق عليه قائلا :

" فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها وهو يظن أنه من الخاصة وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله تعالى بحبه وإرادته ، ولهذا قال بعض السلف من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن ، وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة – مقام المحبة والرجاء والخوف– بقوله : " أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَه "(١٤٧) ، فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها

---

(١٤٥) المصدر نفسه ص ٧٧ .

(١٤٦) بدائع الفوائد ، ج٣ ص ٥٢٢ ، ٥٢٣ .

(١٤٧) سورة الإسراء الآية ٥٧ .

الرجاء والخوف . فهذه طريقة عباده وأوليائه ، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ويقول المحب لا يضره ذنب ، وصنف بعضهم في ذلك مصنفا ، وذكر فيه أثرا مكذوبا (إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب) وهذا كذب قطعا مناف للإسلام ، فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن ، وربما قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ وأما عن رسول الله فمعاذ الله " .(١٤٨)

رابعا : إدامة ذكر المحبوب :-

فإذا صدق المحب في المحبة لم يكن على لسانه أعذب إليه من ذكر محبوبه ، ولا أحلى لقلبه من الاشتغال به ، بحيث لا يستطيع أن يفتر عنه لحظه ، ولا يفارق روحه برهة ، ويصير ذكره روح حياته وسر وجوده ، فإذا وصل إلى هذه المترلة ملك عليه محبوبه جوانحه ، وصار الأنس بذكره سلوى روحه وقرة عينه ، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - " وجعلت قرة عيني في الصلاة "(١٤٩) ، لأنه يجد في الصلاة والذكر راحة نفسه وطمأنينة قلبه ، كما قال ربنا جل وعلا : " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"(١٥٠) .

" لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه ، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه ، وتزايد شوقه إليه ، واستولى على جميع قلبه ، وإذا أعرض عن ذكره واستحضار محاسنه بقلبه نقص حبه من قلبه ، ولا شيء أقر لعين المحب من رؤية محبوبه ، ولا أقر لقلبه من ذكره واستحضار محاسنه ، فإذا قوي هذا في قلبه جرى لسانه بمدحه ، والثناء عليه ، وذكر محاسنه ، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه ، والحس شاهد بذلك حتى قال بعض الشعراء في ذلك :

عجبت لمن يقول ذكرت حبي ... وهل أنسى فأذكر من نسيت

فتعجب هذا المحب ممن يقول ذكرت محبوبي ، لأن الذكر يكون بعد النسيان ، ولو كمل حب هذا لما نسي محبوبه .. والمثل المشهور (من أحب شيئا أكثر من ذكره) ، وفي هذا الجناب الأشرف

---

(١٤٨) المصدر نفسه .

(١٤٩) أخرجه النسائي في سننه ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ، ج٥ ص ٢٨٠ ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(١٥٠) سورة الرعد آية ٢٨ .

أحق ما أنشد :

لو شق قلبي ففي وسطه ذكرك والتوحيد في سطر

فهذا قلب المؤمن توحيد الله وذكر رسوله مكتوبان فيه لا يتطرق إليهما محو ولا إزالة ولما كانت كثرة ذكر الشيء موجبة لدوام محبته ، ونسيانه سببا لزوال محبته أو إضعافها ، وكان سبحانه هو المستحق من عبادة نهاية الحب مع نهاية التعظيم ، بل الشرك الذي لا يغفره الله تعالى هو أن يشرك به في الحب والتعظيم ، فيحب غيره ويعظم من المخلوقات غيره ، كما يحب الله تعالى ويعظمه " (١٥١).

ولهذا كان دوام ذكر المحبوب دليلا على صدق المحبة وعنوانا لها ، ومن ثم كان ذكر الله من أفضل الأعمال والقربات ، وكفى بعظمة أجرها أن قال ربنا جل وعلا في ثواب أهل الذكر ومرغبا فيه ، ومستحثا عليه : " فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ "(١٥٢) فبالله أي ثواب للذاكرين أعظم من أن يذكرهم المحبوب ذكرا هو أفضل من ذكرهم وأعلى وأسمى ؟!!!!

وفي الحديث القدسي : " أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير من ملائه".(١٥٣)

فإذا تحقق العبد بذلك أغدق عليه ربه نعيم محبته ، وألبسه تاج كرامته ، وصار ، وليا لحضرته ، كما في الحديث القدسي : " وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه"(١٥٤) ، أي يصير عبدا ربانيا ، أشبع قلبه بمعشوقه ، وتاهت روحه في محبوبه ، " فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى

---

(١٥١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ، ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(١٥٢) سورة البقرة آية ١٥٢ .

(١٥٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : " ويحذركم الله نفسه" ، وقوله جل ذكره : " تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك " ، ج٦ ص ٢٦٩٤ ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله تعالى ، ج٤ ، ص ٢٠٦١ ، وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ، ج٤ ص ٢٠٦٧ ، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – .

(١٥٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق ، باب التواضع ، ج٥ ص ٢٣٨٤ من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه .

مالكا لزمام قلبه ، مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته ، الذي قد اجتمعت قوى حبه كلها له ، ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع لمحبوبه ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به ، فهو في قلبه ، ومعه ، ومؤنسه ، وصاحبه ، فالباء ههنا باء المصاحبة ، وهي مصاحبة لا نظير لها ، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها ، فالمسألة خيالية لا علمية محضة وإذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها ، كما قال بعض المحبين :

خيالك في عيني وذكرك في فمي		ومثواك في قلبي فأين تغيب

وقال الآخر :

وتطلبهم عيني وهم في سوادها		ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
ومن عجب أني أحن إليهم		فأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وهذا ألطف من قول الآخر :

إن قلت غبت فقلبي لا يصدقني		إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب		فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى من المحب لمحبوبه ، وربما تمكنت المحبة حتى يصير في المحبة أدنى إليه من نفسه ، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه ، كما قيل :

أريد لأنسى ذكره فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل سبيل

وقال الآخر :

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل "(١٥٥)

فذكره لمحبوبه هو الشغل الذي لا يشغله عنه شاغل . فهو آخر ما يذكره وأول ما يذكره وهو أنيسه عند اشتداد الخطوب ، كما قال الإمام رحمه الله :

" ومحك هذا الحال يظهر في مواطن أربعة :

أحدها : عند أخذ مضجعه وتفرغ حواسه وجوارحه من الشواغل واجتماع قلبه على ما يحبه ، فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به .

الموطن الثاني : عند انتباهه من النوم ، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه ، فإنه إذا استيقظ

(١٥٥) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

وردت إليه روحه رد معها إليه ذكر محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم ، ولكن كان قد خالط روحه وقلبه ، فلما ردت إليه الروح أسرع من الطرف رد إليه ذكر محبوبه متصلا بها مصاحبا لها ، فورد عليه قبل كل وارد ، وهجم عليه قبل كل طارق ، فإذا وردت عليه الشواغل والقواطع وردت على محل ممتلئ بمحبة ما يحبه ، فوردت على ساحته من ظاهرها ، فإذا قضى وطره منها قضاه بمصاحبته لما في قلبه من الحب ، فإنه قد لزمه ملازمة الغريم لغريمه ، ولذلك يسمى غراما وهو الحب اللازم الذي لا يفارق .

الموطن الثالث : عند دخوله في الصلاة ، فإنها محك الأحوال وميزان الإيمان ، بها يوزن إيمان الرجل ، ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه ، فإنها محل المناجاة والقربة ، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه ، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إذا كان محبا .

الموطن الرابع : عند الشدائد والأهوال فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه ، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده ، ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاء ، وهو كثير في أشعارهم ، كما قال :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا ... وقد نهلت مني المثقفة السمر

وقال غيره :

ولقد ذكرتك والرماح كأنها   أشطان بئر في لبان الأدهم "[١٥٦]

وفي الشدائد والأهوال يظهر في المحبة صدق الرجال ، فمن صدق محبته للمحبوب لم يذهله عن ذكره أشد الخطوب ، يقول الإمام رحمه الله :

" وقد جاء في بعض الآثار يقول تبارك وتعالى : (إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه) .[١٥٧] والسر في هذا والله أعلم أن عند مصائب الشدائد والأهوال يشتد خوف القلب من فوات أحب الأشياء إليه وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذكر المحبوب الذي يفوت بفوات حياته ولهذا والله أعلم كثيرا ما يعرض للعبد عند موته لهجه بما يحبه وكثرة ذكره له وربما خرجت روحه وهو يلهج

---

(١٥٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(١٥٧) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الدعوات عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بالقوي ج٥ ص٥٧٠ من حديث عمارة بن زعكرة.

به " .[(١٥٨)]

وهكذا دأب المحب وديدنه ذكر محبوبه فالذكر غذاء المحبة الذي يزيدها قوة ورسوخا ودواما ، كما قال الإمام :

" جعل الله لكل شيء سببا وجعل سبب المحبة دوام الذكر فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل فليلهج بذكره فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم " .[(١٥٩)]

خامسا : إيثار إرادة المحبوب على إرادة نفسه :-

وذلك يكون بثلاثة أمور :

١- إيثار طاعته سبحانه على طاعة نفسه مع ما في ذلك من المشقة على النفس.

٢- الموالاة والمعاداة فيه سبحانه فيحب ما يحب الله وإن كان مكروها لنفسه ، ويكره ما يكرهه الله وإن كان قريبا له أو موافقا لهواه .

٣- الرضا بكل ما يصيبه من الله من المحن والبلايا كما يرضى عند النعمة .

فإذا صدق العبد في محبته لربه آثر مراده تعالى على هوى نفسه ، فيصير لا إرادة له إلا ما يريد محبوبه ، ولا هوى له إلا ما يرضاه سيده ، وحينئذ يكون قد سلم أمره إليه وأحسن التوكل عليه ، وأمات شهوات نفسه ، وأحيا عزمه لمرضاة ربه ، فلا يحب إلا ما يحبه الله ، ولا يتمنى إلا ما يرضاه الله .

كما قال الإمام رحمه الله : " وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم قال الله تعالى : "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ"[(١٦٠)] قال الحسن : قال قوم على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم– : إنا نحب ربنا فأنزل الله تعالى هذه الآية".[(١٦١)]

وقد نبه الإمام رحمه الله إلى معنى بالغ الدقة وهو أنه قد يؤثر المحب محبوبه لأحد أمرين إما بغير

---

(١٥٨) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

(١٥٩) الوابل الصيب من الكلم الطيب ، ص ٦١ ، تحقيق : محمد عبد الرحمن عوض ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م .

(١٦٠) سورة آل عمران آية ٣١ .

(١٦١) طريق الهجرتين ج١ ص ٤٥١ . وانظر : تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي ، ج١ ص ٣٣٨ ، ط دار الجيل – بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م .

عوض ولا انتظار مكافأة بل بمحض إرادته ورضاه ولمسارعته في رضا محبوبه ، وإما أن يؤثره وهو ينتظر منه المكافأة بالمثل ، وقد بين أن بين النوعين بونا شاسعا فقال :

" وههنا دقيقة ينبغي التفطن لها وهي أن إيثار المحبوب نوعان : إيثار معاوضة ومتاجرة ، وإيثار حب وإرادة ؛ فالأول : يؤثر محبوبه على غيره طلبا لحظه منه فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه ، والثاني : يؤثره إجابة لداعي محبته فإن المحبة الصادقة تدعوه دائما إلى إيثار محبوبه فإيثاره هو اجل حظوظه ، فحظه في نفس الإيثار لا في العوض المطلوب بالإيثار ، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة ، وأما النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا وما هو بعشها فلتدرك " .(١٦٢)

فمن أقوى علامات المحبة المسارعة في امتثال أوامر المحبوب لينال رضاه ، والبعد كل البعد عما نهى عنه خشية غضبه وقلاه ، وإلا كان ذلك مجرد دعوى خالية عن الدليل كما قال القائل :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه — هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته — إن المحب لمن يحب مطيع

فالمحبة والطاعة للمحبوب متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر ،يقول الإمام رحمه الله:

" فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه من النار " .(١٦٣)

وإيثار مراد المحبوب من أقوى علامات الحب الصادق لما فيه من التضحية بهوى النفس من أجل إرضاء المحبوب كما يقول الإمام رحمه الله :

" تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة في مرضاة محبوبة والتقرب إليه فإن بذل له روحه يحصل إلا بها أن يخلق ذواتا وأسبابا وأعمالا وأخلاقا وطبائع تقتضي معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته لها وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها فكل أحد يحب الإحسان والراحة والدعة واللذة ويحب من يوصل إليه ذلك ويحصله له ولكن الشأن في أمر وراء هذا وهو محبته سبحانه ومحبة ما يحبه مما هو أكره شيء إلى

---

(١٦٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين . ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(١٦٣) الفوائد ، ص ١٤٢ .

النفوس وأشق شيء عليها مما لا يلائمها فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته ويحب ما يحب ممن يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المآكل والمشرب والمنكح والرياسة فإن أعطي منها رضي وإن منعها سخط وعتب على ربه وربما شكاه وربما ترك عبادته فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذين هم عبيده ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له " .(١٦٤)

فالحب في الله والبغض في الله من أصدق علامات المحبة وأهمها كما قال الإمام :

" المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه وأما ان توالى أعداء الملك ثم تدعي انك موال له فهذا محال هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التى بين الشاة وبين الذئب فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه ".(١٦٥)

وقد قال جل شأنه في ذلك : " لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" .(١٦٦)

فمحبة أعدائه سبحانه منافية لمحبته كما قال الإمام : " وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة وشبهه منع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له ، فإن قويت حتى عارضت أصلى الحب والتصديق كانت كفرا وشركا أكبر ، وإن لم تعارضه قدحت في كماله وأثرت فيه ضعفا وفتورا في العزيمة والطلب ، وهي تحجب الواصل ، وتقطع الطالب ، وتنكي الراغب ، فلا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة ، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين إنه قال لقومه : " أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ"(١٦٧) ، فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة ، فإن ولاية الله لا تصح إلا

(١٦٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص٢٠٢ .

(١٦٥) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ٥٦ .

(١٦٦) سورة المجادلة   آية ٣٠ .

(١٦٧) سورة الشعراء   آية ٧٥ – ٧٧ .

بالبراءة من كل معبود سواه ، قال تعالى : " قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ"(١٦٨) ، وقال تعالى : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "(١٦٩) أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمته باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة لا إله إلا الله " .(١٧٠)

وكذلك لا تتم المحبة إلا بمحبة من يحبهم الله كأنبيائه وأوليائه لذا قال تعالى في الحديث القدسي : " من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب "(١٧١) .

وأولى الخلق بالمحبة في الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هو أحب خلق الله إلى الله وأكرم الأولين والآخرين على الله ، وفي ذا يقول الإمام رحمه الله :

" وكل محبة وتعظيم للبشر فإنما تجوز تبعا لمحبة الله وتعظيمه كمحبة رسوله وتعظيمه فإنها من تمام محبة مرسله وتعظيمه فإن أمته يحبونه لحب الله له ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله له فهي محبة لله من موجبات محبة الله وكذلك محبة أهل العلم والإيمان ومحبة الصحابة رضي الله عنهم وإجلالهم تابع لمحبة الله ورسوله لهم " .(١٧٢)

ومحبة رسول الله تقتضي كثرة ذكره والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كما قال :

" المحبة الثالثة فإذا المحبة إما محبة إجلال وتعظيم كمحبة الوالد وإما محبة تحنن وود ولطف كمحبة الولد وإما محبة لأجل الإحسان وصفات الكمال كمحبة الناس بعضهم بعضا ولا يؤمن العبد حتى يكون حب الرسول عنده اشد من هذه المحاب كلها ومعلوم أن جفاءه ينافي ذلك ، قالوا فلما كانت محبته وكانت توابعها من الإجلال والتعظيم والتوقير والطاعة والتقديم على النفس وإيثاره بنفسه بحيث يقي نفسه بنفسه فرضا كانت الصلاة عليه إذا ذكر من لوازم هذه الأحبية ".(١٧٣)

---

(١٦٨) سورة الممتحنة آية ٤ .

(١٦٩) سورة الزخرف آية ٢٦ – ٢٨ .

(١٧٠) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٨ .

(١٧١) سبق تخريجه ، انظر ص .

(١٧٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ، ص ١٨٧ .

(١٧٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩٢ .

ولذا كان ميزان الموالاة في الله والمعاداة في الله من أهم الموازين التي يوزن بها كمال محبة العبد لله تعالى ، كما قال :

" فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته ، وموالاته ومعاداته ، فإذا رأينا شخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه ، علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه ، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثره عنده ، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه ، علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك ، فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك " .(١٧٤)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به".(١٧٥)

ولهذا الإيثار علامات يعرف بها المحب الصادق ، والمتبع الموافق ذكرها الإمام بقوله:

" وعلامة هذا الإيثار شيئان :

أحدهما : فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه .

الثاني : ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه .

فبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار ، ومؤنة هذا الإيثار شديدة لغلبة الأغيار ، وقوة داعي العادة والطبع ، فالمحنة فيه عظيمة ، والمؤنة فيه شديدة ، والنفس عنه ضعيفة ، ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلا به ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، فحقيق بالعبد أن يسمو إليه وإن صعب المرتقى ، وأن يشمر إليه وإن عظمت فيه المحنة ، ويحمل فيه خطرا يسير للملك عظيم وفوز كبير ، فإن ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء من الأعمال ، ويسير منه يرقي العبد ويسيره ما لا يرقى غيره إليه في المدد المتطاولة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء " .(١٧٦)

ولما بين الإمام أن هذا الأمر عسير لما فيه من مخالفة الهوى والنفس والشهوة ، وأنه أمر ضروري للمحبة لا تكون بدونه ، ذكر رحمه الله ما يعين العبد عليه من الوسائل فقال :

" والذي يسهله على العبد أمور :

أحدها : أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة ، ليست بجافية ولا قاسية ، بل تنقاد معه بسهولة .

---

(١٧٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص١٣٧ .

(١٧٥) أخرجه الإمام النووي بإسناد حسن .

(١٧٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٥٠ .

الثاني : أن يكون إيمانه راسخا ، ويقينه قويا ، فإن هذا ثمرة الإيمان ونتيجته .

الثالث : قوة صبره وثباته .

فبهذه الأمور الثلاثة ينهض إلى هذا المقام ويسهل عليه دركه والنقص ".(١٧٧)

ثم بين الإمام العوائق التي تحول بين العبد وبين تحقيق هذا المقام والوصول إليه فقال:

" والتخلف في النفس عن هذا يكون من أمرين :

أحدهما : أن تكون جامدة غير سريعة الإدراك ، بل بطيئة ، ولا تكاد ترى حقيقة الشيء إلا بعد عسر ، وإن رأتها اقترنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات ، فلا يتخلص له رؤيتها وعيانها .

الثاني : أن تكون القريحة وقادة دراكة ، لكن النفس ضعيفة مهينة ، إذا أبصرت الحق والرشد ضعفت عن إيثاره ، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض ، كلما ساقه خطوة وقف خطوة ، أو كسوق الطفل الصغير الذي تعلقت نفسه بشهواته ومألوفاته ، فهو يسوقه إلى رشده ، وهو ملتفت إلى لهوه ولعبه ، لا ينساق معه إلا كرها ، فإذا رزق العبد قريحة وقادة وطبيعة منقادة ، إذا زجرها انزجرت ، وإذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين ، وارتدى مع ذلك بعلم نافع وإيمان راسخ ، أقبلت إليه وفود السعادة من كل جانب ".(١٧٨)

فمن صدق المحبة لله أطاعه في كل شيء في النشاط والكسل ، وفي ما يحبه وما لا يحبه ، فتجده دائما في طاعة الله ، بل تصير الطاعة لذته ومناه " فإن المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه في طاعته ، وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل ، فليزن العبد إيمانه ومحبته لله بهذا الميزان ، ولينظر هل هو ملتذ بخدمة محبوبه أو متكره لها يأتي بها على السآمة والملل والكراهة ، فهذا محك إيمان العبد ومحبته لله ".(١٧٩)

وقد تعجب الإمام من أدعياء المحبة الذين يقدمون هوى نفوسهم على مراد الله منهم فقال :

" ومن العجب أن يدعي حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها ، والغضب والمحبة لها ، والرضا بها ، والتحاكم إليها ، وعرض ما

---

(١٧٧) المصدر نفسه .

(١٧٨) المصدر نفسه .

(١٧٩) المصدر نفسه ، ص ٤٧٤ .

قاله الرسول عليها فان وافقها قبله وان خالفها التمس وجوه الحيل وبالغ في رده ليا واعراضا".[180]

وقد بين الإمام رحمه الله أن الإرادة التي يؤثرها المحب على إرادة نفسه هي الإرادة الشرعية التي تكون بالأمر والنهي ، لا الإرادة الكونية التي تسير الأمور وتدير المقادير ورد على جهلة الصوفية الذين يخلطون بين الأمرين فيرضون بالمعاصي بل ويفعلونها محتجين بإرادة الله لها ، وهذه من الإرادة الكونية لا من الإرادة الشرعية ، وفي ذلك قال :

" ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدعين للمحبة ، وهي أن موافقة المحبوب في مراده ليس المعنى بها مراده الخلقي الكوني ، فإن كل الكون مراده ، وكل ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيئته وإرادته الكونية ، فلو كانت موافقته في هذا المراد هي محبته ، لم يكن له عدو أصلا ، وكانت الشياطين والكفار والمشركون عباد الأوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وإنما يظن ذلك من يظنه من أعدائه الجاحدين لمحبته ودينه ، والذين يسوون بين أوليائه وأعدائه .. وقد ميز الله بين المطيعين والمفسدين مع أن الكل تحت المراد الكوني والمشيئة العامة ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : قال لي بعض شيوخ هؤلاء : المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب ، والكون كله مراده ، فأي شيء أبغض منه ؟ قال : فقلت له: فإذا كان المحبوب قد أبغض بعض ما في الكون فأبغض قوما ومقتهم ولعنهم وعاداهم فأحببتهم أنت وواليتهم تكون مواليا للمحبوب موافقا له أو مخالفا له معاديا له ؟ قال فكأنما ألقم حجرا " .[181]

فهؤلاء الجهال يخلطون عمدا بين الإرادة الكونية التي هي قدر الله الذي قدره على الخلائق ، وهو غيب لا يعلمه إلا الله ، والإرادة الشرعية التي هي مراد الله وأوامره التي أمر بها المكلفين من خلقه ، وقد ذكر الإمام ما سمعه من شيخه ابن تيمية رحمه الله في رده على هؤلاء الجهال وإقامة الحجة عليهم وبيان جهلهم وسوء قولهم وتناقضهم .

وقد وضح الإمام ابن القيم أن الجهل يبلغ بهؤلاء مداه بحيث يسوغون لأنفسهم ارتكاب المنكرات والوقوع في المحظورات متعللين كذبا بأن ذلك ما أراده الله ، وهم بذلك يضيفون إلى ذنبهم ذنبا آخر ، وسوء أدب مع الله حيث يحتجون على سوء فعالهم بالقدر مما يدل على الجهل

---

(١٨٠) زاد المهاجر . ص ٣٠ ، تحقيق : د. محمد جميل غازي . ط مكتبة المدني – جدة

(١٨١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

وسوء الأدب معا ، قال الإمام رحمه الله :

" ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حد بحيث إذا فعل محظورا يزعم أنه مطيع لله سبحانه وتعالى ، ويقول أنا مطيع لإرادته ، وينشد في ذلك :

أصبحت منفعلا لما يختاره ... مني ففعلي كله طاعات

ويقول أحدهم إبليس وإن عصى الأمر لكنه أطاع الإرادة ، يعني أن فعله طاعة لله من حيث موافقة إرادته ، وهذا انسلاخ من ربقة العقل والدين ، وخروج عن الشرائع كلها ، فإن الطاعة إنما هي موافقة الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه ، وأما دخوله تحت القدر الكوني الذي يبغضه ويسخطه ويكفر فاعله ويعاقبه فهي المعصية والكفر ومعاداته ومعاداة دينه ، ولا ريب أن المسرفين على أنفسهم المنهمكين في الذنوب والمعاصي المعترفين بأنهم عصاة مذنبون أقرب إلى الله من هؤلاء العارفين المنسلخين عن دين الأنبياء كلهم ، الذين لا عقل لهم ولا دين ، فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه". (١٨٢)

وهذا في حقيقة الأمر ليس تجردا ولا فناءا في إرادة المحبوب كما يدعون ، وإنما المعنى الصحيح للتجرد والفناء هو أن يفنى المتجرد ويتفانى في عبادة سيده ومولاه ، فيرضى بما يرضيه ، ويسعى في رضاه ، لا أن تتحد الإرادتان كما يزعمون ، وقد فرق أهل السنة بين الإرادة والأمر والرضا ، فالله يريد الشيء وقد لا يأمر به ولا يرضى به كما يريد كفر الكافر ولا يأمر به ولا يرضى به ، وقد يأمر بالشيء ويرضى به ولا يريده كما يأمر الكافر بالإيمان ويرضى به ولا يريده له ، وإلا لو أراده لوقع ، والذي ينبغي أن يتجرد العبد عنه هو رضا ذاته في مرضاة محبوبه وأمره ، وأن يفنى رضاه في رضاه ، دون الإرادة ، دون أن يكتفي بمجرد التجرد عن حظوظ الدنيا كما يقول الصوفية ، ولذا يقول الإمام في ذلك:

" فصاحب الفناء في توحيد الإلهية مجرد عن سوى مراضي محبوبه وأوامره ، قد فني بحبه وابتغاء مرضاته عن حب غيره وابتغاء مرضاته ، وهذا هو التجريد الذي سمت إليه همم السالكين ، فمن تجرد عن ماله وحاله وكسبه وعمله ثم تجرد عن شهود تجريده فهو المجرد عندهم حقا ، وهذا تجريد القوم الذي عليه يحومون ، وإياه يقصدون ، ونهايته عندهم التجريد بفناء وجوده ، وبقاؤه بموجوده

---

(١٨٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

، بحيث يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ولا غاية عندهم وراء هذا " .(١٨٣)

وما كان هذا حال سيد المحبين ، ولا صحابته الغر الميامين ، فقد تجردت إرادالهم عن سوى محبوبهم وفنيت في إرادته ، ولكنهم مع ذلك كانوا يعملون ويتجارون ويتكسبون ، لكن الدنيا كانت في أيديهم ولم تكن في قلوبهم ، وكانت وسيلة إلى مرضاة الله ولم تكن منتهى غاياتهم ، وكانوا يأخذون منها بقدر الحاجة ويذرون الفضول ، لذا نبه الإمام ابن القيم رحمه الله إلى ذلك فقال :

" ولعمر الله إن وراءه تجريدا أكمل منه ونسبته إليه كتفلة في بحر ، وشعرة في ظهر بعير ، وهو تجريد الحب والإرادة عن الشوائب والعلل والحظوظ ، فيتوحد حبه كما توحد محبوبه ، ويتجرد عن مراده من محبوبه بمراد محبوبه منه ، بل يبقى مراد محبوبه هو من نفس مراده وهنا يعقل الاتحاد الصحيح وهو اتحاد المراد فيكون عين مراد المحبوب هو عين مراد الحب وهذا هو غاية الموافقة وكمال العبودية ولا تتجرد المحبة عن العلل والحظوظ التي تفسدها إلا بهذا فالفرق بين محبة حظك ومرادك من المحبوب وأنك إنما تحبه لذلك وبين محبة مراد المحبوب منك ومحبتك له لذاته أنه أهل أن يحب وأما الاتحاد في الإرادة فمحال كما أن الاتحاد في المريد محال فالإرادتان متباينتان وأما مراد المحب والمحبوب إذا خلصت المحبة من العلل والحظوظ فواحد فالفقر والتجريد والفناء من واد واحد" .(١٨٤)

وقد سبقت الإشارة إلى أن المحبة مع البقاء أفضل من المحبة مع الفناء وأكمل .

ومن تمام ذلك أنه كما يحب ما يحب حبيبه من التكاليف وإن شقت على نفسه ، فكذلك عليه أن يرضى بكل ما يصيبه من حبيبه من صنوف البلاء والمحن وإن عارض مراد نفسه.

قال الإمام : " ولذلك بتحمل المشاق الشديدة ، وركوب الأخطار ، واحتمال الملامة والصبر على دواعي الغي والضلال ومجاهدتها ، يقوى سلطان المحبة ، وتثبت شجرتها في القلب ، وتطعم ثمرتها على الجوارح ، فإن المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوارف هي المحبة الحقيقية النافعة ، وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة ، وحصول مراد المحب من محبوبه فليست محبة صادقة ، ولا ثبات لها عند المعارضات والموانع ، فإن المعلق على الشرط عدم عند عدمه ، ومن ودك لأمر ولي عند انقضائه ، وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية

(١٨٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(١٨٤) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

فقط ، وبين من يعبده على السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والعافية والبلاء".[١٨٥]

ولذلك يبتلي الله عباده بالخير والشر لينظر هل يشكرون ويصبرون ؟ أم يجحدون ويسخطون ؟ ولا يعد من أهل المحبة من صدق فيه قوله تعالى : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ " [١٨٦].

فالمحب الصادق هو من لا يتغير قلبه بحال مهما أصابه منه فهو ثابت على محبته دائما .

سادسا : الشوق إلى لقائه :-

كما في قوله صلى الله عليه وسلم " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه " فالمؤمن في شوق دائم إلى لقاء حبيبه وسيده أيما شوق ، وهو لايفتر عن سؤال ذلك كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو : " أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك " .

يقول الإمام رحمه الله : " وبالجملة فقلب المحب دائما في سفر لا ينقضي نحو محبوبه كلما قطع مرحلة له ومترلة تبدت له أخرى ، كما قيل : إذا قطعت علما بدا علم فهو مسافر بين أهله ، وظاعن وهو في داره ، وغريب وهو بين إخوانه وعشيرته ، ويرى كل أحد عنده ولا يرى نفسه عند أحد ، فقوة تعلق المحب بمحبوبه توجب له أن لا يستقر قلبه دون الوصول إليه ، وكلما هدأت حركاته وقلت شواغله اجتمعت عليه شؤون قلبه ، بله قوى سيره إلى محبوبه".[١٨٧]

والمحب الصادق لله يعد الدنيا عائقا عن لقيا حبيبه ، ولذا فهو يعيش فيها غريبا مستوحشا مترقبا للقاء حبيبه ومولاه ، وقد حكى الإمام عن أحد أعلام المحبين فقال :

" وجاء رجل إلى بعض العارفين ، فقال : رأيت في المنام كأنك تموت إلى سنة ، فقال عبد الله : لقد أجلتني إلى أجل بعيد ، أعيش إلى سنة ؟ لقد كان لي أنس ببيت سمعته من أبي علي الثقفي :

يا من شكى شوقه من طول فرقته اصبر لعلك تلقى من تحب غدا "[١٨٨]

وهي ليست دعوى خالية عن دليل ، بل من اشتاق إلى محبوبه أخذ بأسباب الشوق من التوبة والإنابة ليقبل عليه بما يليق بمحبته ، كما قال الإمام :

---

(١٨٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، ج١ ص ٦ .

(١٨٦) سورة الحج آية ١١ .

(١٨٧) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٥٦ – ٤٥٩ .

(١٨٨) المصدر نفسه ص ٤٦٤ (بتصرف) .

" الشوق إلي الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا ، من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح ، ومن أرسله في الناس اضطرب واشتد به القلق ، لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سم الإبرة ، إذا أحب الله عبدا اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته ، واستخلصه لعبادته ، فشغل همه به ، ولسانه بذكره ، وجوارحه بخدمته والقلب يمرض كما يمرض البدن ، وشفاؤه في التوبة والحمية ، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر ، ويعري كما يعري الجسم وزينته التقوى ، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة " .[189]

وما أجمل هذه الكلمات التي قالها الإمام في شأن الشوق ، معبرا عن أشواق المحبين والتي لا تخرج إلا ممن كابد الشوق واصطلى بناره :

" تعرف رب العزة للمحبين فعملوا على اللقاء ، وأنت مشغول بالجيف ، ما يساوى ربع الدينار خجل الفضيحة فكيف بألم القطع ؟! المعرفة بساط لا يطأ عليه إلا مقرب ، والمحبة نشيد لا يطرب عليها إلا محب مغرم ، والحب غدير في صحراء ليس عليه جادة ، فلهذا قل وراده ، المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والتعلق بذكره كهرب الحوت إلى الماء والطفل إلى أمه ، ليس للعابدين مستراح إلا تحت شجرة طوبى ولا للمحبين قرار إلا يوم المزيد ، فمثل لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبى يهن عليك النصب ، واستحضر يوم المزيد يهن عليك ما تتحمل من أجله ، كنوز الجواهر مودعة في مصر الليل ، فتتبع آثار المحبين لعلك تظفر بكنز ".[190]

ألا ما أروعها من كلمات تفيض حبا لله وشوقا إليه !!

---

(189) الفوائد . ص 98 .

(190) بدائع الفوائد ، ج 3 ص 734 ، 735 .

المبحث الثامن

ثمرات المحبة

فإذا أخلص العبد المحب في محبة مولاه ، وأقبل عليه بكليته زاهدا في لـذات دنيـاه ، ومخالفـا لشهواته وهواه ، عوضه الله بذلك لذة ليس بعدها لذة ، وأنسا لا يدانيه أنس فلذة معرفته وحبه سبحانه ليس كمثلها لذة ، كما أن ذاته – تعالى– ليس كمثلها ذات .

وإلى ذلك أشار المعصوم صلى الله عليه وسلم بقوله : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان " ذكر منها : " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .. " ، وكذا قوله – عليه الصلاة والسلام – : " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا " .

يقول الإمام : " أعظم لذات الدنيا على الإطلاق وهي لذة معرفته سبحانه ولذة محبته ، فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي ، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر ، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك ، فأطيب ما في الدنيا معرفته سبحانه ومحبته ، وألذ ما في الجنة رؤيته ومـشاهدته ، فمحبته ومعرفته قرة العيون ، ولذة الأرواح ، وبهجة القلوب ، ونعيم الدنيا وسرورها من اللـذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاما وعذابا ، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك ، فليس الحياة الطيبة إلا بالله ، وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول : إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا إنهم لفي عيش طيب ، وكان غيره يقول : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف " .(١٩١)

فما أعذب المحبة وما أعظم لذتها في قلوب المحبين ، حتى إن كل محب ليتغنى بمحبتـه ومحبوبـه ، ويعبر عن ذلك ما استطاع ، وإن من يحبون الله أسعد وأعظم لذة وأولى بذلك من غيرهم ، قـال الإمام رحمه الله :

" وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب يقول في حاله :

وما الناس إلا العاشقون ذووا الهوى ... فلا خير فمن لا يحب ويعشق

ويقول آخر :

أف للدنيـا مـتى ما لم يكـن ... صاحب الدنيـا محب أو حبيـب

ويقول الآخر

ولا خـير في الدنيا ولا في نعيمها ... وأنت وحيـد مفرد غير عاشق

---

(١٩١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص١٦٨ .

ويقول الآخر :

أسكن إلى سكن تلذ بحبه   وذهب الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر :

تشكي المحبون الصبابة ليتني   تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها   فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

فيكف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح ؟! وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها ، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقد شمه ، واللسان إذا فقد نطقه ، بل فساد القلب إذا خلى من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلي منه الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة ، وما لجرح بميت إيلام " .(١٩٢)

وعند كمال المحبة يفيض الله على المحب من نوره فينشرح صدره ويصير نورا بل مصدرا للنور فيرى بنور من الله. فمن أعظم أسباب انشراح الصدر كما قال الإمام رحمه الله:

" الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ومحبته بكل القلب ، والإقبال عليه ، والتنعم بعبادته فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك ، حتى إنه ليقول أحيانا : إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة فإني إذن في عيش طيب ، وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب ، لا يعرفه إلا من له حس به ، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد ، كان الصدر أفسح وأشرح " .(١٩٣)

وهذا النور الناشئ عن تلك المحبة إنما يعم ظاهر المحب وباطنه كما يقول ابن القيم :

" وهذه المحبة هي التي تنور الوجه وتشرح الصدر وتحيي القلب " .(١٩٤)

وينشأ عن لذة المعرفة ولذة الحب لذة أخرى وهي لذة الشهود ، ولذة القرب أو لذة المعية وإليها أشار الإمام بقوله :

" وهذا القرب هو من لوازم المحبة ، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر ، وقد استولت محبة المحبوب على قلب محبه ، بحيث يفنى بها عن غيرها ، ويغلب محبوبه على قلبه ، حتى كأنه يراه

---

(١٩٢) المصدر نفسه .

(١٩٣) زاد المعاد ، ج٢ ص ٢٢ .

(١٩٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٧٠ .

ويشاهده ، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه ، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلجه ، وسببه ضعف تمييزه ، وقوة سلطان المحبة ، واستيلاء المحبوب على قلبه ، بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه ، وفي مثل هذه الحال يقول : سبحاني أو ما في الجبة إلا الله ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه ، في تلك الحال ، فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفوة الوداد ، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء ، وأقرب إليه من نفسه مع كونه ظاهرا ليس فوقه شيء ، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا فليضرب عنه صفحا إلى ما هو أولى به ، فقد قيل :

إذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع(١٩٥)

ومن الواضح ههنا أن الإمام يحذر من يقرب من بحر المحبة أن يشرع في الخوض من غير أن يركب سفينة المعرفة بالله ، أي معرفة ما يجب له تعالى وما يجوز وما يستحيل في حقه سبحانه ، فيقف عند حدود الأدب مع الله وإلا فقد عرض نفسه للغرق والهلاك المحقق ، فإنه قد نزل بحرا لا ساحل له ، ولا يقوى على السباحة فيه أحد لبعد قعره وارتفاع موجه ، وشدة اندفاعه وإحاطة العواصف به من كل جانب ، فمن غامر وقع فيما وقع فيه أصحاب الشطحات ، الذين تاهت عقولهم في بحار محبته فغرقوا وهلكوا ، وبدلوا التوحيد في سكرة التجريد ، أما من ركب سفينة المعرفة فقد سلك سبيل النجاة ، وآذن أن يظفر بمراده وينال ما تمناه ، فيحيا في رحاب الحضرة الإلهية ويظفر بشرف وكرامة المعية الربانية ، فيحيا قلبه بمحبوبه ، ويكون له من ساحة قربه نزلا ليس يبغي عنه انتقالا ولا حولا .

وهو يؤكد ذلك المعنى فيقول :

" فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة ، ومعرفة بقرب المحبوب من محبه غاية القرب وإن كان بينهما غاية المسافة ، ولاسيما إذا كانت المحبة من الطرفين ، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها ، فإن المحب كثيرا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره ، ويفنى عن غيره ، ويرق قلبه ، وتتجرد نفسه ، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه ، وبينهما من البعد ما بينهما ، وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي وفي لسانه وجوده اللفظي ، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب به ، فيظن أن في عينه وجوده الخارجي ، لغلبة حكم القلب والروح ، كما قيل :

---

(١٩٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب؟! "(١٩٦)

فالمحب مع محبوبه في لذة عظمى ، كيف لا وهو قد ظفر بمعية محبوبه ومحبته ، كما في الحديث " وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به .. "(١٩٧).

وفي هذا الحديث يقول الإمام : " فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه ، والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين ؛ أداء فرائضه والتقرب إليه بالنوافل ، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب مما تقرب إليه المتقربون ، ثم بعدها النوافل ، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى ، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه ، وملكت عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة ".(١٩٨)

فيا لله ما أشهى محبة الله حينئذ ، وما أطيب معرفته ، وما ألذ الوصول إليه والفوز برضوانه ، فإذا وجد العبد ذلك هان عنده كل عارض وعائق ، وسهل عليه كل صعب ، ولم يجد لذة لغير ذلك ، وصار في سعادة لا مثيل لها ، وفي ذلك يقول الإمام رحمه الله :

" فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق ، وانقلبت المخاوف في حقه أمانا ، فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم ، فلا هم مع الله ، ولا غم مع الله ، ولا حزن مع الله ، وحيث يفوت العبد معني هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء ، يثب وينقلب حتى يعود إليه ".(١٩٩)

وصدق من قال :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

فالمحب مع محبوبه في سعادة لا تنغصها كدورات الدنيا ولو اجتمعن عليه ، فمن ظفر بمعية الله لم يضره ما ضاع منه . ولم يحزن على فقدان مفقود ، ولم يفرح بوجدان موجود .

---

(١٩٦) المصدر نفسه .

(١٩٧) سبق تخريجه .

(١٩٨) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ١٣٠ .

(١٩٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .

وفي علم المعاملة مع الله ، تجد الله أكرم الأكرمين ، فإنه سبحانه إذا وجد من عبده تجردا به عما سواه فأحب وأبغض لحبه لا لهواه ، وفنيت إرادة نفسه في إرادة محبوبه ومولاه ، فإن الله سبحانه يقبل على عبده بصنوف المحبة حتى إنه سبحانه ليسارع له في هواه ويكره أن يسؤه شيء غير منه على أحبابه وأوليائه ، فمن أوفى محبة من الله ؟!

يقول ابن القيم رحمه الله :

" ولما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى في محابه ، حصلت موافقة الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه ، فقال : " ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه "(٢٠٠) ، أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب الى بمحابي فانا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعل به ويستعيذني أن يناله مكروه ، وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت ، والرب تعالى يكره ما يكره عبده ، ويكره مساءته فمن هذه الجهة تقتضى أنه لا يميته ولكن مصلحته في إماتته فإنه ما أماته إلا ليحييه وما أمرضه إلا ليصحه وما أفقره إلا ليغنيه وما منعه إلا ليعطيه ولم يخرج من الجنة في صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن الأحوال ، ولم يقل لأبيه أخرج منها إلا ليعيده إليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه ، بل لو كان في كل منبت شعر لعبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده " .(٢٠١)

وحينئذ تحصل للعبد الكفاية بالله فيستغني عن كل ما سواه ، حتى ليستغني في حالات كمال الشهود عن القوت المعهود ، فيصيره قوته الحقيقي وصل حبيبه ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في حالات الوصل يستغني عن الطعام والشراب بالوصال ، وينهى عنه أصحابه لأنه مقام صعب لا يجري عليه التشريع ، فإن التشريع على وجوب الفطر عند الغروب بل واستحباب التعجيل به ، أما في حقه صلى الله عليه وسلم فلا ، حيث كان يواصل الأيام والليالي ذوات العدد ويقول معللا ذلك : "إني لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني "(٢٠٢) .

وقد علق الإمام ابن القيم على هذا الحديث تعليقا بديعا قال فيه :

---

(٢٠٠) سبق تخريجه .

(٢٠١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٢.

(٢٠٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصوم ، باب بركة السحور ، ج٢ ص ٦٧٨ ، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصيام ، باب النهي عن الوصال في الصوم ، ج٢ ص ٧٧٤ ، من حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – .

" وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين

أحدهما : أنه طعام وشراب حسي للفم قالوا : وهذه حقيقة اللفظ ولا موجب للعدول عنها .

والثاني : أن المراد به ما يغذيه الله به من معارفه وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه وتنعمه بحبه والشوق إليه وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح وقرة العين وبهجة النفوس والروح والقلب بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه وقد يقوى هذا الغذاء حتى يغني عن غذاء الأجسام مدة من الزمان كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها   عن الشراب وتلهيها عن الزاد

لها بوجهك نور تستضيء به   ومن حديثك في أعقابها حادي

إذا شكت من كلال السير أوعده   روح القدوم فتحيا عند ميعاد"(٢٠٣)

ثم أردف ذلك بما يدل على أن الأمر لا يدرك حقيقة معناه إلا من كان له تجربة وخبرة بهذا الأمر فقال :

" ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني ، ولاسيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قد قرت عينه بمحبوبه ، وتنعم بقربه والرضى عنه ، وألطاف محبوبه وهداياه وتحفه تصل إليه كل وقت ، ومحبوبه حفي به معتن بأمره مكرم له غاية الإكرام مع المحبة التامة له ، أفليس في هذا أعظم غذاء لهذا المحب ؟! فكيف بالحبيب الذي لا شيء أجل منه ولا أعظم ، ولا أجمل ولا أكمل ، ولا أعظم إحسانا ، إذا امتلأ قلب المحب بحبه ، وملك حبه جميع أجزاء قلبه وجوارحه ، وتمكن حبه منه أعظم تمكن ".(٢٠٤)

فهنيئا للمحب بجنة محبوبه في الدنيا ، حيث أنسه بالله وفوزه بمحبته ورضاه ، وهنيئا له بجنة الآخرة نعيما مقيما لا يزول ولا ينقطع ، يقول الإمام :

" فالجنة مأواه يوم اللقاء ، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه في هذه الدار ، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانا ، والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا ، والفجار في جحيم وإن إتسعت عليهم الدنيا ، قال تعالى : " مَنْ عَمِلَ

---

(٢٠٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج٢ ص ٣٠ .

(٢٠٤) المصدر نفسه .

صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً "(٢٠٥) ، وطيب الحياة جنة الدنيا ، قال تعالى : " فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا"(٢٠٦) ، **فأي نعيم أطيب من شرح الصدر ؟! وأي عذاب أضيق من ضيق الصدر؟! وقال تعالى :** " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"(٢٠٧) ، **فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا وأنعمهم بالا وأشرحهم صدرا وأسرهم قلبا وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة " .(٢٠٨)**

وهم لشدة شوقهم يتطلعون إلى لقاء المحبوب لينتقلوا من جنة الحب إلى جنة المجاورة والقرب في جنات النعيم ، يقول الإمام :

" وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى : " مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"(٢٠٩) **: لما علم سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه ، وأن قلوبهم لا تهدي دون لقائه ، ضرب لهم أجلا موعدا للقائه تسكن نفوسهم به ، وأطيب العيش واللذة على الإطلاق عيش المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ، ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها ، فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى : " من عمل صالحا من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة " .(٢١٠)**

وتلك هي الجائزة العظمى التي يتمناها كل محب وهي النظر إلى محبوبه ورؤيته ، فأولئك ينعمون برؤية الرحمن ، وذلك في الآخرة حين يكرمون بلذة النظر إلى وجهه الكريم ، كما وعد في كتابه العظيم بقوله : " لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"(٢١١) .

---

(٢٠٥) سورة النحل　آية ٩٧ .

(٢٠٦) سورة الأنعام　آية ١٢٥ .

(٢٠٧) سورة يونس　آية ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

(٢٠٨) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٣٩ .

(٢٠٩) سورة العنكبوت　آية ٥

(٢١٠) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٢٩ .

(٢١١) سورة يونس　آية ٢٦ .

الخاتمة

وبعد .. فهذا غيض من فيض ، وقطرة من غيث ، وغرفة من نهر ، فالحب الإلهي بحر لا ساحل له ، لا يستطيع أن يخوض عبابه الهائج إلا من حظي بتوفيق الله وغياثه ، وقد خاض الإمام ابن القيم رحمه الله هذا البحر خوض السابح الماهر ، واقتحم الميدان اقتحام البطل الجاسر ، لاسيما وقد تعلق في خضم هذا البحر بسفينة الشريعة التي من تشبث بها نجا ومن زاغ عنها ضل وغوى ، وخسر الآخرة والأولى ، وقد قاوم تيارات المبتدعين ، وعواصف البطالين المبطلين ، وسل سيف السنة ليعلو بها هام أهل الضلالة والبدعة ، فجاءت أقواله ممثلة للتصوف السني الذي يستقي قواعده وعقائده من الشرع الطاهر النقي ، الذي هو مدد كل تقي ، وحجة على كل جاهل غبي .

ولقد طوف بنا الإمام رحمه الله عرصات هذا الموضوع الرحب ما بين اشتقاقه وماهيته إلى أنواعه وأقسامه إلى درجاته ومراتبه ، ثم إلى خصائصه ، ثم إلى علاماته التي تظهر على أصحابه ، ثم إلى آثاره فيهم وفيوضاته عليهم ، فتمتعنا معه بهذا التطواف والتجوال ، ووقفنا معه على بعض حقائقه ودقائقه .

وقد تميز الإمام في تناوله لهذا الموضوع بالفكر التحليلي الذي يحلل النصوص ويهذب النقول ويدرك أبعادها ، ويسبر أغوارها ، ويستقصي جزئياتها ، وبالفكر التركيبي الذي يكون من هذه الأبعاد والأجزاء نظرية متسقة متكاملة ، وبالفكر النقدي الذي ينقد الآراء ويمحصها نقد الصيرفي الماهر الذي يميز الجيد من الرديء ، ويفرق بين الغث والسمين .

والحب في الله هو أول الأمر وآخره ، وحقيقته وموضوعه وغايته ، وهو أفضل الأعمال وأشرف الأحوال ، وعليه مدار الدين ، وهو سر سعادة الدارين ، وسبب كون الأكوان ، وسبيل الفوز بالجنان ، والنجاة من النيران ، ومستوجب رضا الرحمن.

ومن أهم النتائج التي وقفت عليها من هذا البحث :

١- أن الإمام ابن القيم رحمه الله قد تكلم في المحبة الإلهية بكلام يدل على تجربته الوجدانية العميقة ، إلى جانب وقوفه على تجارب أهل التصوف وأرباب السلوك ، فجمع بذلك بين كمال العلم ، وكمال التجربة .

٢- أنه رحمه الله يتميز في حكمه على الأمور بمنهجه الذي عرف عنه وهو الالتزام بما جاء في الكتاب والسنة ، فهو لا يطلق العنان للأذواق والمواجيد كما يفعل بعض الصوفية

من أهل الشطح ، وإنما يقيدها بقيود الشريعة ، ويقف بها على حدود ما جاء في النبعين الطاهرين .

٣- أن المحبة من المعاني الوجدانية العميقة التي يصعب التعبير عنها باللسان ، أو تعريفها بالحدود والرسوم المعهودة عند المناطقة .

٤- أن المحبة في عمومها جنس تندرج تحته أنواع ، لكن أعلاها وأزكاها محبة ذي الجلال والإكرام ، وهو سبحانه أكرم محبوب ، وأجل مقصود لأنه صاحب الكمال المطلق والنوال المحقق .

٥- أن لمحبة الله عز وجل خصائص تميزها عن بقية أنواع المحبة ، وبهذه الخصائص تفضل غيرها من تلك الأنواع ولا تجتمع في نوع سواها .

٦- أن لمحبة الله على أهلها علامات يعرفون بها ، وتظهر عليهم بسبب محبتهم ، وما أعظم أن تظهر على العبد هذه العلامات التي تدل على صدقه في محبته .

٧- أن العبد الذي يصدق في محبة الله سبحانه ينال ثمرات هذه المحبة في الدنيا والآخرة ، وتصير حياته الدنيوية نعيما عظيما بسبب لذة محبة رب العالمين ، فما بالك بما أعد الله له في الآخرة من النعيم المقيم .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل محبته ، على وفق شريعته ، وسنة حبيبه ورحمته .

اللهم ارزقنا حبك ، وحب من يحبك ، والعمل الذي يقربنا إلى حبك ، اللهم اجعل حبك أحب إلينا من أنفسنا ، وأموالنا ، وأولادنا ، وأهلينا ، ومن الماء البارد .

اللهم حبب إلينا الإيمان ، وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أسماء المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد .

٢- إحياء علوم الدين ، الإمام أبو حامد الغزالي ، تحقيق محمد عبد الملك الزغبي ، ط مكتبة فياض – القاهرة.

٣- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، الإمام ابن القيم ، تحقيق : محمد حامد الفقي . ط دار المعرفة – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م .

٤- بدائع الفوائد ، الإمام ابن القيم ، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا – عادل عبد الحميد العدوي – أشرف أحمد اج ، ط مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

٥ – البداية والنهاية ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، ط مكتبة المعارف – بيروت .

٦- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط المكتبة العلمية – بيروت .

٧- تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، ج١ ص ٣٣٨ ، ط دار الجيل – بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م .

٨- الجامع الصحيح المسند المختصر الإمام أبو عبد الله البخاري ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، ط دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م .

٩- الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبي ، ط دار احياء التراث العربي بيروت – لبنان ١٤٠٥ ه – ١٩٨٥م .

١٠- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ، الإمام ابن القيم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط ، ط دار العروبة – الكويت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

١١- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، الإمام ابن القيم ، ط دار الكتب العلمية – بيروت .

١٢- حلية الأولياء ، أبو نعيم ، ط دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

١٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، ط دار الكتب الحديثة – القاهرة .روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

١٤- ذيل طبقات الحنابلة ، ابن رجب الحنبلي ط دار المعرفة للطباعة والنشر–بيروت.

١٥- الرسالة القشيرية ، الإمام أبو القاسم القشيري ، ط دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م .

١٦- الروح ، الإمام ابن القيم ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

١٧- زاد المعاد في هدي خير العباد ، الإمام ابن القيم ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط ، ط مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية – بيروت ، الكويت ، الطبعة الرابعة عشر ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م .

١٨- زاد المهاجر ، تحقيق : د. محمد جميل غازي ، ط مكتبة المدني – جدة

١٩- سنن ابن ماجة ، أبو عبد الله ابن ماجة القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج١ ص ٥٠ ، ط دار الفكر – بيروت

٢٠- سنن أبي داود ، أبو سليمان داود السجستاني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط دار الفكر – بيروت .

٢١- سنن الترمذي ، الإمام أبو عيسى الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، ج٥ ص ٦٠٦ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٢٢- سنن النسائي ، الإمام النسائي ، تحقيق عبد الغفار سليمان البندري ، سيد كسروي حسن ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٢٣- سير أعلام النبلاء ، للحافظ شمس الدين الذهبي ، ط الطبعة التاسعة ١٤١٣ ه ١٩٩٣ م مؤسسة الرسالة – بيروت .

٢٤- صحيح ابن حبان ، الإمام أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

٢٥- صحيح مسلم ، الإمام مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٢٦- طريق الهجرتين وباب السعادتين ، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر ، ط دار ابن القيم – الدمام (الثانية) ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ .

٢٧- الفوائد ، الإمام ابن القيم ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٢٨- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٢٩- المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩٠م .

٣٠- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، الإمام ابن القيم ، ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٣١- المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، الإمام ابن القيم ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، ط مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٣٢- الوابل الصيب من الكلم الطيب ، تحقيق : محمد عبد الرحمن عوض ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

٣٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان تحقيق إحسان عباس ، ط دار صادر بيروت.